حسن
عبد الموجود

البشر والسحالي

رسوم
عمرو الكفراوي

الدار المصرية اللبنانية

البَشَرُ

والسَّحالي

حسن عبد الموجود

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

الخنزير

أدونيس يعود إلى «القصر»

جدي قفز في النيل بملابسه حينما لمسه خنزير، أما أنا فأكلت لحمه.

أخيرًا أكلته، أخيرًا حققت حلمي بتذوقه، ابتلاعه، قطعة بعد قطعة، بتجرُّع عصارة دهنه القوية الساخنة في جوفي، جرعة بعد جرعة. أكلته ولم أشعر بالذنب، أكلته دون أن أفكر في دودة تسري من لحمه إلى جوفي وتصيبني بمرض نادر وخطير، أكلته دون أن أفكر في جيراني إذا عرفوا، أكلته دون أن أفكر أنهم قد يجتنبونني لأيام، وربما شهور، ويسخرون مني، ويرفضون أن يزوجوني بناتهم - يومًا ما - لأنهم يعلمون أنني سأتحول ببطء إلى شخص مخنَّث لن يغار على زوجته إذا لمسها رجل آخر أمامه.

لم يسمح أهل قريتنا بوجود الخنازير. اعتبروها نجاسة، ومنعوا المسيحيين من اقتنائها. كان على المسيحي إذا رغب في أكل لحم خنزير أن يحضره مذبوحًا من قرية «القصر». كان مسموحًا لهم فقط بطبخها لا تربيتها، وحين تهبُ رائحة شوربة الخنزير، تُصدِر معدتي أصوات خبٍّ متلاحقة، وأفكر للمرة الألف أن أغافل أمي، وأهرب من البيت، لأطرق باب الجيران، وأطلب قطعة لحم خنزير كما حلمتُ لسنوات، بينما تعبس أمي، ويعبس الجيران. تصيح امرأة بتأفف: «قرف»، ويجاوبها زوجها بتأفف أكبر: «ادبحي فرخة تغطّي على ريحة الخنزير. الله يلعنهم»، وحين أنظر حولي في حيواناتنا، أتخيل أنها تتحدث بنفس الطريقة في أفلام الكارتون. يقول أرنب لأبنائه: «لماذا يحبون في هذا البيت لحومنا نحن فقط؟!» وتقول دجاجة لأخواتها: «يا ليتني أسكن في عشة أسرة مسيحية»، وتصيح بطة: «الخنازير إخوتي. خذوني لأعيش معها»، وتقول سحلية وعيناها تبرقان في

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

الشمس: «لا تنظر لي.. سأغلق باب الجنة بمفتاحي في وجه الخنازير».

ويحدث أحيانًا أن يحاول أحد المسيحيين التحايل على الأمر. عاد جارنا «ظريف» بعد منتصف الليل - ذات يوم - من المركز، وهو يحمل - على رأسه - قفصًا ضخمًا مغطًى بملاءة. كانت عودته في هذا التوقيت غير عادية ومريبة. وجهه متشنج، وخطوته متثاقلة. ثم انفتح باب بيت، وتبعه باب آخر وثالث، وخرج الجيران، وسألوه عما يحمله، وتلعثم، وكلمة من هنا وكلمة من هناك، وأصرّوا على إنزال القفص ليروا ما فيه. لم تكن بضع بطّات كما قال، بل خنزير أسود، مكتمل النمو. ربما في عمر ستة شهور، لكنه يبدو أكبر. بالكاد تبيَّنوه في الإضاءة الشاحبة، جلده في سواد الخروب. حاولتُ رؤية عينيه ولم أستطع، وخفق قلبي الصغير بتوتر خوفًا عليه، وعلى عمّ ظريف. اتخذوا القرار. طلبوا من ظريف أن يعود به من حيث جاء، وإلا ألقوه في المصرف، لكن ظريف لم يصدقهم طبعًا، فهو يعرف أنهم لن يلمسوه مهما حدث، ولو فتح القفص حالًا، وأطلق الخنزير لفرُّوا إلى بيوتهم. على أية حال استدار ظريف عائدًا من حيث أتى، بينما أطلّت زوجته دميانة بوجه إلهة غاضبة - في تلك اللحظة - بثوبها الأسود من خلف باب بيتهما، لكنها لم تنطق.

أحبُّ ظريف، وأحبُّ دميانة، وأحبُّ ابنتهما مها، وأحب بيتهم، ولوحاتهم الجميلة المعلّقة على الحوائط اللبنية. لم تكن موضوعة في أطر، بل تُركت كما اتفق، كل واحدة معلقة بدوبارة في مسمار صدئ أو وتد خشبي صغير مدفوس في لحم الطوبة الخضراء، وهي قديمة - على ما يبدو - لدرجة أن الزيت أكل أطرافها. «العدرا مريم» - في إحدى اللوحات - لا تستقر على الأرض، وتبدو كما لو أنها ترتفع إلى السماء، ويفيض كفاها بالنور. بينما تجمعها ثلاث لوحات أخرى مع عيسى. لاحظت فروقًا طفيفة بين وجوهها الثلاثة في الصور، لكنني تغاضيت عنها، وفكّرت في تلك الإضاءة الخافتة الجميلة التي تنطلق من وجهها على الدوام، وأحببتُ كذلك صورة لها مع عيسى ويوسف

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

النجار وحماره، لكن صورتي المفضلة كانت للقديس مارجرجس وهو يقتل التنين بينما إحدى الأميرات الجميلات تطل على المشهد من بعيد. كان المسجد لا يحوي سوى لوحات الخط الكوفي، وكنت أتتبَّع الحروف في انعطافاتها الصارمة، وأتخيل أنني أدخل متاهة، لكن بعد فترة شعرت بالملل، أما هذه الصور فقد منحتني حياة أخرى عشتها مع نفسي. وبدأت أسأل عن مريم وعيسى والنجار ورحلتهم المقدسة إلى مصر، ومعجزات المسيح، وكان ظريف يحكي لي باستفاضة، بينما تطلب منه دميانة بصرامة أن يكف عن الحكي، فألكز بدوري مها لتطلب منها أن تكف عن مقاطعته. تخشى دميانة - على ما يبدو - أن يصل الكلام إلى أبي وأمي وأعمامي.

تسمح أمي لي باللعب مع مها، لمدة نصف الساعة بالكاد، وإذا غبت مدة أطول تأتي لتطرق باب بيتهم الخشبي بحجر تلقفه من الأرض، وتجرني من شعري إلى البيت، وتحايلت على الأمر بالكذب، إذ أخبرها أنني سأذهب إلى جدتي، أو أخوالي في الطرف الآخر من البلدة، ولأنها تراقبني من سطح بيتنا، أقطع الشارع إلى نهايته، ثم أتوقف في الشمس فترة حتى أخمن أنها تعبت من الوقفة ومن اللظى، وعادت إلى الداخل فأجري باتجاه بيت ظريف الملاصق لبيتنا، وأطرقه طرقًا خفيفًا فتفتح مها. كانت رقيقة. في رقة فراشة، ونظيفة على الدوام، تمشط شعرها بزيت ماركة «أملا». أحببت رائحته المميزة، وفهمت أنه ما يمنحها رائحتها على الدوام، في وقت كانت بنات عائلاتنا تمشطن شعورهن بالجاز، حتى إنهن كن لا يقربن النار إلا بعد أن تجف رؤوسهن. وتخيلتهن دومًا أعواد كبريت تنتظر الإشعال.

دميانة تحبُّني، لكنها سيدة صارمة، تعرف حدود العالم حولها، وتعرف أن مصير أسرتها معلَق على خطأ. إنها لم ترني سوى هذا الطفل الذي حملته بمجرد ولادته، حتى إن أمي كانت تتركني معها لو أرادت أن تحصل على قيلولة، مع رضعة تجهزها من اللبن واليانسون. تطلب منها بخشونة ألا ترضعني من ثديها مهما حدث. لا أعرف كيف عاملتني،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

لكنني أصدقها حين تقول لي: إنها اعتبرتني مثل مها. كان يفصلني عن ابنتها شهر واحد، ووضعتني دومًا إلى جوارها في فراش واحد، وكان يطيب لها أن تذكر أن أصوات بكائنا وضحكنا وضراطنا تتداخل أحيانًا، لدرجة أنها لم تميز على وجه الدقة بيننا، ثم إنها أحبتني كما تحب ابنتها، حتى إنها كانت تطرق بابنا لتسأل أمي إن كانت تريد النوم الآن، وأمي تشعر بالقلق لا الغيرة أحيانًا من ذلك الاهتمام. نعم.. لا تغار منها، فجزء منها يخبرها بأن دميانة إنسانة نقية، لكنها في أحلامها وأحلام يقظتها تستيقظ على هروب دميانة وظريف بي من القرية، وربما من العالم إلى عالم آخر صنعته أمي في خيالها. تقف فزعة وتجري إلى بيت دميانة وتطرقه وتطمئنها رائحة العدس أو القلقاس أو البصارة أو رائحة السمك المقلي إلى أن كل شيء عادي. تحملني وتهدأ قليلًا.
دميانة تراني ابنها، وأخًا لابنتها، وأنا أراها أمي، وأم حبيبتي، لكنني - على الرغم من هذا - أبقيت مشاعري دفينة تحت جلدي طوال الوقت، مكتفيًا بانتزاع إعجاب مها بطريقتي في الحكي. صحيح أنني نسبت جزءًا من قصص جدتي إلى نفسي، لكنني أجدت فعلًا ارتجال حكايات. وسط الحكي أتوقف - أحيانًا - وأطلب منها أن تتحدث هي، أن تقول شيئًا، أي شيء، أن تفتح فمها وكفى، حتى ولو لتدلي برأيها في أحد دروسنا، أو لتصف كائنات أحلامها وكوابيسها، فأنا أعرف، وهي تعرف، أنني لن أسمع ما تقوله، وبمجرد أن تبدأ.. أتمعن في وجهها، وحركة أسنانها ولسانها وشفتيها، طريقة نطقها، وضحكها.

ثم - ذات يوم - عرضت عليَّ كنزها الصغير..

استأذنت أمها أن تصحبني إلى السطح، فأذنت لها. هناك أرتني مجموعة من الكتب المكتنزة، ولوهلة تخيلت أنها كتب المدرسة، وكدت أقول لها إنني أكره المدرسة، إذ نضطر - أنا وهي - إلى التعامل برسمية أمام بقية الطلاب والمدرسين، مع أن كثيرين منهم يعلمون - بالذات أبناء جيراننا - بعلاقة الصداقة بيننا، وربما يفكرون في أن علاقة أخرى تربطنا، علاقة مكللة بالقبلات السرية ولحم الخنزير، لدرجة أنهم

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

يفتشون شطائري - أحيانًا - ليروا إن كانت محشوّة بشرائح «المرتديلا». صاح فيَّ أحدهم - ذات صباح بارد- ضاحكًا وهو يغمز: «بتعمل ايه يا بمس مع النصرانية؟!» لكنني سددتُ إليه لكمة ثبّتت الغمزة في وضعها لأسبوع على الأقل، ثم إنني لا أكترث حين يجرُب فيَّ أحدهم اللعبة المفضلة في قريتنا، وهي أن يضع علامة - أي علامة - على الرأس. حصاة صغيرة، نواة، عقب سيجارة، ثم يصيح ليغيظني: «اللي عليه إشارة خدّام النصارى»، وأحيانًا كي أبعد عن أذهانهم صورة صديق النصارى - من يأكل أكلهم، ويمسح وجهه ويديه في مناشفهم - أشاركهم في غاراتهم على كنيسة صغيرة في قرية مجاورة، ننتظر انفجار جرس الكنيسة بصوته المميز، ليملأنا بكثير من الإثارة، ونعتبر أن اللحظة قد حانت، فنمطر بابها بالأحجار، ثم نعود مسرعين إلى قريتنا. وفي موسم الأمطار أقف معهم، بينما يدعون الله بالخير لهم والبلاء للنصارى، لكني أفتح فمي وأغلقه بدون أن أتحدث محاذرًا أن يروني، وحينما ينظر لي أحدهم بشك أبالغ في صياحي، بينما أفتح ذراعي لاستقبال زخّات المطر: «نطّري عنب وتين على بيوت المسلمين، نطّري حجارة حجارة على بيوت النصارى»، لكني - بالطبع - أحرص على ألا تشاهدني مها في ذلك الوضع أبدًا.

لم أقبل منهم أي تلميح سيئ عنها، وكنت أفكر فيها قبل نومي، إذ يطمئنني وجهها، فقد اعتبرتها جنيّتي الجميلة. قالت جدتي لي لو أحبتني جنية فقد تتحدى عائلتها وتصحبني معها إلى سابع أرض، لم تحاول إخافتي وهي تكرر سرد هذه القصة الخيالية أمامي، لكنها تلوح بإصبعها محذرة حين آتي على سيرة مها، فما الفارق بين إنسية وجنية إن كنت سأضيع في جميع الحالات؟! بإمكانك أن ترى كيف يتحوّل وجه جدتي وكل هذه الوجوه الشبيهة الطيّبة - ذات الوشوم الخضراء - إلى وجوه غيلان، حينما يعرف أصحابها بوجود علاقة بين أحد أبنائهم ومسيحية.

لم يكن كنز مها كتبًا مدرسية، وإنما مجلدات قديمة ذات أغلفة متآكلة

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

بها كثير من القصص الخرافية، ورسومات بالأسود. ظل هذا اللون - لفترة طويلة - يسيطر على خيالي. امتلأت أحلام يقظتي بكثير من القصص غير الملونة، كأني أطير على ظهور طيور ضخمة مرسومة بقلم أسود، وأقتل تخطيطات لتنانين ووحوش. قلبت كتب مها صفحة صفحة، وقرأت سطورًا منها، وشعرت أنني أتذوق عسلًا، ثم فكرت أن أطلب منها السماح لي باستعارتها، لكنَّ ظريف انضم إلينا وهو يحمل مجموعة من ألواح خشب الأبلكاش، وسنده على السور القصير، وسلم عليَّ وقبّل ابنته، فشعرت بطعم قبلته على وجنتها. تخيلت أنني أقبلها كذلك، على الوجنة ذاتها، في نفس المنطقة البضة البريئة والمذهلة والمتشرّبة لونًا ورديًا على الدوام، كأن ذلك الخد يمتح من سائل وردي يملأ قلبها. لم يكن ظريف قادرًا على حكي أكثر مما سمعه من جداته في «القصر». اختار النجارة لأنها مهنة المسيح. صنع لنا أبوابنا فأوصدناها في وجهه، وصنع لنا طاولات طعامنا، فأنفنا أن نُجلسه إلى جوارنا حولها، رغم أننا لا نكف عن إظهار الود له، لكنه بمجرد أن يستدير ليلتقط مسمارًا شاردًا على الأرض، ويثبّته بإحكام على لوح الخشب، ويهوي بالشاكوش عليه، يقلبُ أهلي وجوههم باشمئزاز، وهم يتخيلون أن رائحته الزفرة ستلبد في جلودهم، مع أنه في - كثير من الأحيان - يتحمل رائحة نتنة تنبعث منهم، تشبه رائحة فئران متحللة، بعد أيام من مخاصمتهم الماء.

تعامل معي ببساطة. قلت له ضاحكًا - ذات يوم - إن المسيح لم يمتلك «فأرة»، فضحك بدوره وقال: «ولا منشار!»، ثم نظف أسنانه بمسمار رفيع - كما يروق له دومًا - وأخبرني أنه يمزح.أكثر حكايات أحببتها له كانت عن تربية الخنازير في القصر، إذ يشارك أهله هناك في مزرعة. أذهب مع أمي أو أبي إلى القصر، في مناسبتين لا ثالث لهما، الأولى حين يموت أحد أقاربنا، فمدافننا هناك، والثانية في الأعياد، إذ نلعب - نحن الصغار - فوق المقابر، بينما يتحدث الكبار مع موتاهم، ويخبرونهم أن اللقاء قريب جدًا، كأنهم يبشُرونهم بشيء عظيم، مع أن الموتى - كنت أتخيل - يهمسون لأنفسهم أن المقابر تزداد ضيقًا في كل عام

maktabbah.blogspot.com

عليهم. يقول أحدهم لآخر: «لم أعد أميِّز عظم ترقوتي»، فيرد عليه: «لا تقلق أنا أعرفها جيدًا، أنا أبوك وأحفظ عظامك عظمة عظمة»، ويعود الابن الميت للشكوى: «لكن عليهم أن يشتروا مساحة أخرى من الجبل. لقد تعبت من الزحام ومن ثرثرتهم».

في يوم آخر تشجَّعت قليلًا، وطلبت من ظريف أن يصحبني معه إلى «القصر»، لأرى تلك الخنازير، وقلت له إنني لم أشاهدها أبدًا هناك، ففسَّر الأمر بأن بيوتهم لا تقع على طريق المقابر. الخنزير شريك في البيوت، وهو كائن طيب، ومعشره لطيف، يأكل أيَّ شيء، لكنهم لا يحشونه - كما يقول أقاربي طوال الوقت - بالقمامة، كما لا يتركونه يأكل روثه. وإنما الأعشاب، ويأتي طبيب بيطري من الصحة ليكشف عليه، ولحمه ذو مذاق رائع، وسعره أرخص من لحم الأبقار، ومن الجديان. قال لي ظريف كذلك إن بعض المسيحيين يكرهون لحم الخنزير مثلنا، فاندهشت، ويبدو أنني بالغت في اندهاشي إذ مدَّ إصبعين وضغط المنطقة ما بين حاجبيَّ ليزيل تقطيبتي. انضمت إلينا دميانة، وجلسنا في الغرفة المواجهة لباب البيت، وفي خلفيتنا صور العذراء الثلاث، بعد أن طلبت منهم مها أن يستمعوا إلى حكاية أدونيس.

التهمت مها الحكايات واحدة وراء الأخرى. لم تترك كتابًا إلا وأعادت قراءته أكثر من مرة، بمجرد أن أحضر أبوها الكنز من مكتبة قديمة في المركز، ومع هذا أحبَّت الاستماع إليها مني. مها أول شخص يخبرني بأن لي طريقة مميزة في الكلام. حكيت لهم عن نشأة أدونيس في كنف امرأتين، ولأن اسميهما غابا عني وأنا أحكي، قلت لهم، فلنفرض أنهما «عمتي دميانة» و«أمي». أمي تعرضت لمؤامرة من إلهة اسمها دميانة غارت من جمالها، ثم حولتها إلى شجرة «مُر» انشقت وخرج منها هذا الطفل الوسيم أدونيس، ليصبح مقسومًا بين امرأتين، كلتاهما تحبه، وكلتاهما تريده لنفسها، لكنهما تفقدانه للأبد في رحلة صيد. لم تكن رمية أدونيس جيدة بما يكفي ليقتل ذلك الخنزير الشرس. توقف

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

الخنزير الجريح لحظة - ربما - ليتحسس ألمه، وأدرك أن أمامه ثواني قليلة عليه أن يهاجم فيها أدونيس، قبل أن يستل سهمًا جديدًا من جعبته ويشده في قوسه، فهجم عليه ونطحه في قدمه، وغرس نابه فيها. كان جرح أدونيس بالغًا غير قابل للشفاء، حتى إن أنينه لم يشفع له عند الآلهة القاسية لتتدخل وتنقذه، وصار الخنزير منبوذًا وكريهًا. أخفت دميانة ضيقها من شخصيتها في الحكاية سريعًا، لتأمرني بعدم مغافلة أمي، ولتذكرني بأنَّ عليَّ نسيان «القصر»، ثم أصابت ظريف بنظرة كالحجر صائحة: «ومش هياكل لحم خنزير أبدًا. دي أمانة يا ظريف»، وردَّ وهو ينظر لها بخوف وحب: «تمام يا دميانة». دميانة امرأة لا تلين ولا تنسى. صبورة. تستمع جيدًا، لكن الكلمة الأخيرة لها دائمًا.

تساهل ظريف معي رغم رعبه من دميانة، ربما ليحقق متعة ما بمشاهدتي مع الخنازير، وربما لأنني ذكَّرته بكلامه. كان يقول ببساطة إن الإنسان عليه أن يخطئ حتى يطلب التوبة. الله - في عليائه - يحتاج إلى خطايانا، فهي السبيل الوحيد ليضمن قربنا منه، وولاءنا له. إذا لم نخطئ سنعبده قليلًا من الوقت، وفي غمرة انشغالنا قد ننساه. الله يحتاج إلى أن نتصرف بطبيعتنا، حتى نخطئ فتعيدنا أخطاؤنا إليه.

وكانت الخطة كالتالي: أن أذهب مع خالي إلى القصر لنلعب الكرة، ثم أقابل ظريف هناك، وهو يتولَّى نقلي إلى بيت عائلته، ليطلعني على مزرعة الخنازير. كنا نلعب ضد فريق من المسيحيين، في ملعب من التراب الأحمر، ولم يكن التقسيم بحسب الديانة مقصودًا أبدًا، لكننا انتبهنا له ذات مرة ونحن نسمع نداءاتهم على بعضهم البعض لتمرير الكرة بسرعة. ريمون. صموئيل. أنجيلوس. ألفونس. أشعياء. أرميا. ضحكنا، وسقط بعضنا على الأرض إذ كانت أسماء مبالغًا فيها بحسب رؤيتنا، وقررنا أن نطلق عليهم فريق «الكفار»، وأعجبهم الأمر وصاروا يضحكون مثلنا، ثم اعتمدت خطتنا بالكامل على إضحاكهم لتشتيت

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

تركيزهم، وتسهيل الأمور علينا، فنحرز هدفًا تلو هدف، ونجري تجاه بعضنا ونصيح بهتاف: «الله أكبر». كنا نفوز أحيانًا، ويفوزون أحيانًا. نتصافح، ونقبّلهم، لكننا بعد أن نصير بمفردنا يبصق بعضنا على الأرض. يقول أحدنا إنه يريد أن يلقي بنفسه في النيل حالًا من فرط الزفارة، ثم ينظر إليّ: «طبعًا نفسك تبقى نصراني أنت عشان مها». تفهّم خالي الأمر، لكنني لم أقل له إنني ذاهب لرؤية الخنازير، وإنما لجدة مها المريضة. اتفقنا على أن ينتظرني في موقف السيارات حتى أفرغ من زيارتي، وطلب مني أن لا أتأخر. بعد قليل صرت في بيت عائلة ظريف. كان هناك سور صغير يحيط بأرض ترابية بها كثير من تماثيل صلصال لخنازير تتنوع درجاتها بين الأحمر والبني، وفكرت أن هذه العائلة تحبّ ذلك الكائن إلى هذا الحد. آه لو علمت أمي. لكنني لم أرغب في التفكير. التفكير بداية المأساة، وإن كنت سأتعرض للتعذيب بعد ساعات فلأستمتع الآن. عبرنا التماثيل المنحوتة بحرفية بالغة. لمستُ أحدها لكنه تحرك فجأة، وتبعته بقية التماثيل. قفزتُ في مكاني وأبعدت يدي. كانت خنازير حقيقية بدت كأنها تعرّضتْ لتعويذة نوم، ثم تحرّرتْ بدخولنا فاستيقظت. تركني ظريف أشاهد كيفما يحلو لي. انتبهت فجأة إلى باب بيت - داخل المزرعة - يُفتح وتطلّ منه مها بفستان أزرق تسبح فيه ورود بيضاء، واندهشتُ، إذ اكتشفتُ توًا وأنا أثبّت نظري على وجهها - متناسيًا تحديق أبيها فيّ - أن الحب أقوى من الفضول، وأقوى من المعرفة، وأقوى من لذة الاكتشاف، وأقوى من قدرتنا على حبسه كالنيل في مجرى.

تركني ظريف أفعل ما يحلو لي. كان يعلم، أو فلنقل - إن شئتم الدقة - قد قرر أنه العشاء الأخير. جلسنا على طاولة رأيتها في لوحة المسيح وتلاميذه. كان هناك بضع نساء معنا. أمهات وجدّات وعمّات وخالات لظريف ومها، وكثير من الأطباق ذات الرائحة المميزة. لم تكن رائحة عدس أو قلقاس أو بصارة، وإنما رائحة شواء ثقيلة. رأيت طبقات من اللحم الأبيض الساخن، يتصاعد منها البخار إلى سماء الغرفة الخشبية الداكنة. لم أكن مهتمًا بخجلي في هذه اللحظة. حبسته في قمقم، أو

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com
تضاءل هو من تلقاء نفسه مع إحساسي بعدم الاكتراث بأي شيء. لم أكن مهتمًا باحتفاء السيدات المختلط بنوع من الدهشة، كأنهن مقبلات على مشاهدة عرض لحيوان كُنَّ يسمعن عنه في الحكايات الخرافية. لم أكن مهتمًا بشيء.. حتى إنني نسيت مها، ونسيت الحب، ونسيت القبلات الوهمية الجميلة، ونسيت نظرة التصميم المقلقة في عيني ظريف، ونسيت أمي، ونسيت خالي، وكنت أفكر في مذاق أول قضمة من الخطيئة، وأدركت أن الإنسان لا بد أن يولد في عشاء أخير.

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF
تابعونا على الموقع الرسمي
www.maktabbah.blogspot.com
أو على قناة التيليجرام
t.me/alanbyawardmsr

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

السحلية

مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

مفتاح الجنة

انتظرتُ الوحي طويلًا. هيأت نفسي للنبوة، وهيَّأتني أمي لها، وعملت بجد حتى أقتنص معجزتي، لكنني أصبحتُ معجزة أمي.

كان يطيب لها - بينما تمرر أصابعها في شعري - أن تحكي عن حملها الهادئ فيَّ. صرت طفلًا كبير الحجم، كثير الحركة، في الشهر الثالث. شعرتْ أمي باندهاش دائم من رغبتي المبكرة في الخروج إلى الشمس. لم يتوقف بطنها عن التموُّج، حتى إنها حلمت مرة بأن جلدها أصبح قشرة بيضة، انهارت تحت ضربات قدمي فأطلَّ وجهي منه مثل فرخ. أمي كثيرة الأحلام. تحلم في نومها وفي يقظتها. وذات ظهيرة، وبينما تستلقي - في الدور العلوي من بيتنا - على فراشها المُنجَّد حديثًا، زارها طيف، أو ملاك، أو شخص من عالم آخر، فأيقنت أنني لست طفلًا عاديًا، وقدَّرتْ رغبتي في الخروج المبكر.

لم تترك تفصيلة إلا وحكتها، كأن التفاصيل إثبات لقداسة قصتها. عانتْ في هذا اليوم من أسراب الذباب. استمرت تهاجمها في تشكيلات، كلما أبعدها هواء المروحة البدائية إلى جانب الغرفة، تعود - بمجرد أن توجِّه المروحة هواءها إلى جانب آخر - مستهدفة خدودها الخمرية، إذ كان وجهها الجزء الوحيد الظاهر من أسفل ملاءة نظيفة. غاب أبي منذ أيام في عمله بالمركز، وتمنَّت أمي لو يظهر في هذه اللحظة ليطرد الذباب ويغلق الشباك.

انفتح الباب بهدوء، فتخيلت أن أبي عاد، لكن أدهشها أنها لم تستمع لصوت دراجته النارية العالي، وفكرتْ بقلق أنه قد تعرَّض لحادث في الطريق، فركنَ الدراجة النارية، وعاد مع العائدين. فوجئت – وقد بدا لها أنها تحلم – بدخول طيف ضخم، خفيف كالسحاب، لم يستقر على

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

طول معين، وبدا أنه يسبح في فضاء الغرفة. منعتها طمأنينة غريبة من الصراخ، وإيقاظ البشر والحيوانات في قيلولتهم. مد ما يشبه ذراعا، ولمس بطنها فوق الملاءة، كأنه يبارك الطفل القادم، كأنه يباركني.

خشيت أمي أن تخبر أبي بتلك القصة. احتاجت إلى خمس وعشرين عاما لتفرج عنها، لكنها بدأت تحكيها لي فوزا، حتى قبل أن أتعلم نطق أول كلمة في حياتي. تحكيها المرة تلو المرة بنفس الدهشة والاستمتاع. حرصث دائمًا على صبغ صوتها برزانة ما لإضفاء الهيبة على الأمر، لدرجة أنني قررت أخيرا أن هذه القصة ليست عادية، وأنني سأكون نبيًا، وإلا ما جاء هذا الملاك بنفسه ليباركني، كنت دائم التفكير فيه، وتمنيت أن يكون سيدنا جبريل، إذ إن قدوم كبير الملائكة بنفسه يعني الكثير لنبي يتلمّس بالكاد أولى خطواته في الحياة.

تلبّستني فكرة النبوة تدريجيًا، وحرصت على الاختلاء بنفسي كثيرًا. ساعدني بيتنا الواسع على ذلك، إذ أتاح لي أكثر من ركن هادئ. جلسثُ إلى جوار الفرن على أكوام قش نستخدمها في إشعال الحطب، أو على كومة تِبن بالقرب من غرفة كراكيب، أو في المدخل الواسع حيث يركن أبي دراجته النارية، كما توقفت كثيرًا في الشوارع الجانبية ذات الظل العالي. حرصت على عدم مغادرة المسجد فوزا، متلفتًا حولي على الدوام، محاولًا تخمين الناحية التي سيأتيني منها الملاك. قررت أن أبدي له اندهاشًا كبيرًا، رغم أنني أنتظره منذ شهور. لو ظل وجهي جامدًا فربما يتضايق، وقد يعود إلى السماء ليجعلني بطلًا لحكايات سيئة، ومن يدري ربما يقنعهم بالتخلي عني.

توقعت أن يظهر الملاك في هيئة إنسان. كل قصص إمام المسجد جعلتني على يقين من هذا. لم أفطن إلى أن «خاتَم المرسلين» تعني أنه آخرهم، وإلا لتوقفت عن مطاردة الوحي في كل مكان، لكنني فهمت أنها تعني خاتمًا يُزيِّن الإصبع، كأنه زينة الأنبياء، وقدَّرتُ أن باستطاعتي على هذا النحو الانضمام إلى لائحتهم. في أحلام يقظتي تخيلت إمامنا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

يتحدث عنّي بتبجيل ورهبة بعد أن يعرف حقيقتي، لكنني فوجئت بأحد رفاقي يقول لي - في حديث عابر: إن الأربعين هي سن النبوة. شعرت بضيق بالغ، إذ كان عليَّ الانتظار طويلًا، لكنني خلعت عني الغضب وقررت بحماسة أن أعمل مبكرًا لأستحق مكافأتي. صحيح أنَّ أمامي مشوارًا طويلًا، لكن لا يجوز أن أنتظر حتى سن الأربعين.

كنت متأكدًا أن الرحمة سترافقني أينما حللت ابتداء من هذه اللحظة. راقبت السحاب القريب في أيام الشتاء. إذا هدأت الريح استقرَّ - في مكانه - فوق رأسي، وإذا تحركت.. تحرَّك. وبالتالي خمنت اتجاهه دومًا، وقلت لنفسي إن الله يظللني بهذا الظل لأنني نبي. سرتُ في اتجاه حركة السحاب مطمئنًا أنه سيحرسني ويرافقني حتى باب بيتي، لكنني فوجئت به - كل مرة - يسير في الاتجاه الآخر، وكنت أشعر بالإحباط قليلًا، وبالإحراج كثيرًا، لكني أعزِّي نفسي بأن الجو ليس حارًا لأحتاج إلى مِظلَّة، ومع هذا لم أتوقف عن محاولة السيطرة على السحاب ولم يتوقف عن الهرب. جرَّبت الوقوف بالساعات، أشير له بالتوقف، فيسرع من عدوه في السماء كأنه يتعمد إغاظتي.

وجدت ضالتي أخيرًا في الفراشات الحمراء وكنا نسميها «العساكر»، ربما لانتظامها في صفوف على فروع الأشجار، وربما لأنها تبدو وهي تفرد أجنحتها لفترة طويلة دون أن ترف كأنها في وضع «انتباه».
منحتني تلك الفراشات إحساسًا بأنني أمتلك معجزة ما. في الإجازات يستيقظ الصغار في قريتنا ويقررون اللعب - قبل أن يفطروا - بحسب موسم الألعاب، وكان هذا الموسم - لحسن الحظ - هو موسم اصطياد الفراشات. قتلة صغار يتحركون في مجموعات، يتجهون صوب مناطق الزرع، حيث تمتلئ الأوراق الخضراء بالفراشات. يتجمدون كتماثيل إلى جوار فرائسهم المرتقبة، بينما هي - في وضع العساكر - تفرد أجنحتها الشفافة. إذا سكن الهواء، وخفَّت الحركة، واطمأنت، تُنزِل أجنحتها مليمترات، وحينما تشعر بالسلام تطبق أجنحتها تمامًا على أجسادها الشبيهة بغوّاصات ملونة وتنام، فينقض القتلة الصغار عليها ويمسكونها

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

بحذر، كأنهم يخافون عليها.

أقنعتُ - في أحد الأيام - مجموعة من هؤلاء الصغار بأنني أستطيع التأثير في الفراشات من بعيد، وأن أجعلها تنام بسرعة، بشرط أن يقفوا ساكنين، وصدقوني، إذ عهدوني صبيًا هادئًا وبسيطًا، أبدو في عيونهم رجلًا مكتمل النمو، موفور الصحة، قادرًا على هزيمتهم جميعًا في أي معركة، لكن لحسن حظهم أنني لا أظهر إلا مبتسمًا، أرفع يدي بالتحية للرائح والغادي، وقد أصبح لي أتباع كثيرون من هؤلاء القتلة، لكنني تنبّهت متأخرًا أنه لكي أثبت قدرتي على تنويم الفراشات - بشكل سريع - فإنني قد تسببت في إبادة عائلات كاملة منها. إذ يضع القاتل منهم الفراشة في علبة كبريت فارغة، وفي مواسم أخرى يستبدلها بالزنابير والخنافس. يقرِّب العلبة من أذنه، ثم يهزها فتبدأ الفراشة - التي تعاني من نقص الأكسجين - في التخبط. ينساب صوت تخبُّطِها في أذن القاتل كموسيقى. يجري بالعلبة إلى أقربائه ويطلب منهم الاستماع فينبهرون ويشعرون بالسعادة، إذ يعتقدون أن طفلهم يمارس - على هذا النحو - حياته بطبيعية. في النهاية يُخرِج الفراشة الدائخة ويبدأ في تقليم أجنحتها. يلقيها على الأرض ليتكفَّل سرب نمل فارسي بحمل جثتها إلى مستعمرة قريبة في شقّ جدار أو في جذع شجرة مقطوع. تألمتُ كثيرًا، ثم طمأنتُ نفسي: لا عليك. لكل نبي خطيئة.

في منزلنا وجدت كتاب «قصص الأنبياء» والتهمته في بضعة أيام بتلذذ كبير، وقررت بعد قراءة كمٍّ من الحكايات أن أختار لنفسي حيوانًا أو طائرًا يكون رمزًا لي، إذ يجب أن أكون على مستوى رفاقي الأنبياء. ولحسن الحظ أن سيدنا نوحًا أنقذ كل هذه الحيوانات والزواحف والطيور لتعيش معنا، وتُزيِّن حياتنا. لولا هذه الحيوانات على وجه الخصوص لتغوَّل علينا الزرع، أو لتغوَّلنا عليه، لولا هذه الحيوانات لما عرفنا مذاق اللحم، لولاها لكنا نحتاج إلى استهلاك طاقة رجالنا في إدارة السواقي وفي الحرث، لولاها لذهبنا إلى حقولنا البعيدة سيرًا على الأقدام، لولاها لما عرفنا الرحمة ونحن نطلب من الجزارين أن يذبحوها

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

بسرعة حتى لا تتألم، مع أننا لا نتذكر هذه الرحمة ونحن نمضغ لحم إخوتنا ببطء وتلذذ، لمجرد أن استيقظنا في الصباح، وعلمنا أن أعمارنا زادت يومًا.

وقع اختياري على الهدهد، فقد نجا من عذاب سيدنا سليمان بفطنته، وبصدقه كذلك. فكرت أنني أحتاجه لينقل لي أخبار العالم. استوعب مخي الصغير - وقتها - قدرته على الطيران لمسافات طويلة، لينقل نبأ الملكة الجميلة من سبأ إلى فلسطين، حيث يجلس سليمان على عرشه، ومن حوله جيش من الإنس والجن. لم يخطر لي الهدهد إلا حينما وجدته في مصيدة القمري، التي كان ينصبها أخي على سطح البيت - ذات صباح - فانتابني الهلع. جريت ناحيته، لأخلّصه من الفخ، ولحسن الحظ لم تنكسر ساقه، لكني قبل أن أطلقه تمعَّنت في تاجه البني المرقّط بالأسود، وفي ذيله الأسود المرقّط بالأبيض. كان مدهشًا ما تحكيه جدتي عنه. إذا وجد طعامًا لا يقربه، وينادي على حبيبته حتى تأتي لتشاركه. كانت تخبرني دائمًا: من الهدهد فهم الإنسان أن اللذة في المشاركة، وأن الفرحة بالطعام والشراب لا تتحقق إلا بالألفة، وأن الجمال في اقتسام الشيء لا في امتلاكه.

بدأت في فتح يدي وإفلاته ببطء، ومن باب التجريب - وباعتباري نبيًا منتظرًا - أمرته ألا يطير، لكنه حلّق فوزًا في الهواء بدون أن ينظر لي مجرد نظرة. يا له من عاصٍ لكنني لست سليمان. هذا الهدهد كان منذ شهور - غالبًا - في قارة أخرى. جاء إلى قريتنا بحثًا عن الرزق، لكنه نسي مثل جميع الهداهد أن مهمته تنظيف الأرض من الدود ويرقاته، إذ يجد مخزونًا هائلًا من القمح والذرة بعد فرطها. أراه في شقوق البيوت، وعلى الأسطح البعيدة، وأحيانًا في تجاويف صغيرة في أشجار المانجو العالية، لكن الهدهد بدا لي غير عملي، فكثيرًا ما يغيب عن نظري أسابيع، ولن أخرج من البيت خصيصًا للبحث عنه، ثم إنني لم أكتسب بعدُ القدرة على فهم لغته ومخاطبته بها، وقد عصى لي أول أمر. صحيح أنني لا أحمِّله الخطأ، لكنني كذلك لا أريد طائرًا كان رمزًا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

لنبي آخر قبلي، وهكذا استبعدت هدهد سليمان كما استبعدت نملته، واستبعدت ناقة صالح، وبدا لي الغراب متعاليا بعض الشيء، وغير اجتماعي، كما بدت لي البومة صامتةً أكثر من اللازم، والكروان نمطيًا لا يملك سوى التباهي بصوته، ولم يعجبني تحول الكلب في قريتنا إلى قاطع طريق، وخفت من مصاحبة القط فلا أعرف أي روح من أرواحه السبع سترافقني، وقلت لنفسي إن الحصان قد يجذب انتباه الناس أكثر مني، وكرهت الثعابين من حكايات جدي، مع أنني أحببت عصا موسى، وصورتها وهي تلقف ثعابين السحرة، وفكرت أن بإمكاني أن آمرها بأن تلقف كل ما يخيفني، وكل من يضايقني.

كانت الحكايات دائمًا تقف كالكابوس بيني وبين ما أريد تحقيقه..

فوجئ جدي ذات يوم بثعبان ضخم في مواجهته، وسط بيتنا الكبير، يغطّي غبار أسود جلده الأصفر، وفهم أنه سقط من سقف بيتنا المصنوع من جريد النخل، وردمه الترابُ الثقيلُ طوال سنين. ابتسم جدي، إذ يعرف تعويذة بإمكانها إذلال الثعبان وتعريضه لإحراج كبير، وإعادته خائبًا من حيث جاء.

أغلق عينيه بثقة بالغة، وصاح بيقين: «لا تأذيني ولا آذيك. بيني سك حديد. ما بينك سكَ حديد» وهذه التعويذة كما أفهمها ويفهمها جدي وبقية سكان قريتي تخلق حائلًا حديديًا ضخمًا بين الثعبان وصاحبها، لكن هذا الثعبان على ما يبدو لم يفهم العبارة، وربما كان - مع الأسف - أطرش، وبدا له وضع جدي الواثق من نفسه بعينيه المغلقتين مستفزًا للغاية، فقفز باتجاهه ولدغه في قدمه الحافية. نظر إليه جدي بذهول بينما ينسحب، ثم إلى قدمه، وبكى كالأطفال، وهو يصيح متألمًا: «يا تعبان يا ابن الكلبة!».

وهكذا لم أعد أفكر في الثعابين..

طلبت مني أمي، كما تطلب مني دومًا، أن أحرس العجين. استيقظتُ باكرًا هذا الصباح وأدركتُ أن الجو صحو، فقررتُ العجن فوزا، وسرعان

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

ما وضعت النخالة على «المقارص».

كنت كلما رأيت العجين على «المقارص» عجبتُ أن يوضع على هذه الأواني المسطَّحة المصنوعة من روث، جففته الشمس، حتى تيبَّس.

بدأت أمي في تقطيع العجين بمهارة. كانت تمد يدها في الآنية الضخمة وتُخرج قرصًا يشبه نهد امرأة، ثم تفصله عن كتلة العجين الضخمة، وتمدُّده على سجادة النخالة، وتتركه قليلًا في الشمس ليكتسب لونًا ذهبيًا، وقبل أن يختمر بالكامل، تغرز إبرة نظيفة في جانب كل رغيف نيئ، وتصنع بها دائرة في منتصفه بالضبط، وتقول لي كأنني لا أعرف: «لازم العيش يتنفس» ومن رغيف إلى آخر، حتى تتم مهمتها، وتطلب مني تولي حراسة العيش الشمسي من السحالي..

قفزت السحالي إلى رأسي، وفكرت بدهشة لماذا نسيتها، مع أنها الأكثر انتشارًا في بيوتنا، ولا تغادر نظري طوال النهار، تقفز بألوانها الزاهية، الصفراء والخضراء الداكنة، وأجسادها النحيفة الرشيقة. تحولت الدهشة إلى سعادة كاملة حينما تذكرت أن داخل كل جسد سحلية مفتاحًا للجنة كما أخبرتني جدتي، وبما أنه ليس هناك نبي قد اختار السحلية رمزًا فلتكن رمزي. ظننته اختيارًا موفقًا، إذ إن السحلية من الكائنات المُكرَّمة، بما أنها تحمل مفاتيح الجنة، وبما أن الكبار قد نهونا عن قتلها، أو إلقاء الطوب والأحجار الصغيرة عليها، أو حتى إفزاعها.

بعد عشرات السنين، بل قل مئات السنين - على ما يبدو - شعرت السحالي بأن بيوتنا بيوتها، وقريتنا قريتها، وأننا ضيوف عليها، وبالتالي لم يكن غريبًا أن تجد سحلية تتمطّى في الشمس محدقة فيك باندهاش، ولو نطقت، لربما وبَّختك لأنك لم تعلق جرسًا في رقبتك ينبهها إلى اقتحامك خلوتها، وربما تفكر بينما تحدق فيك أنها كانت يومًا ما وحشًا، يستطيع ابتلاعك وابتلاع أهلك وقريتك، بأرضها وبيوتها وحيواناتها، لكن القدر سلبها قوة أسلافها مع الأسف، وهي تحدد سورًا وهميًا دومًا بينها وبيننا، مسافة صغيرة لا يمكنها تخطيها،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

إذ إن الإنسان مُتقلّب، وهناك من قتلوها بحثًا عن مفتاح الجنة. شقُّوا بطونها، لكنهم لم يجدوا سوى مصارين ودماء..

مع كل حادثة كان الخوف يتلبَّسنا، نتضرع إلى الله ألا يصيبنا بلعنته، يهمس بعضُنا لبعضِنا بأننا نعلم الحقيقة: أن الله استرد مفتاح جنته، ولم يمنحها لقاتل، ومع هذا قد تنسى السحلية ما جرى لأخواتها، وتنسى كذلك الحدود بينها وبيننا - ودائمًا تنسى - وتجدها فجأة في حِجرك بينما تتناول غداءك، وعليك أن تحاذر حتى لا تخيفها وتُنزِل جزءًا من ذراعك إلى الأرض بميلٍ معقول بحيث يصبح مهبطًا لجلالتها.

قررتُ أن أصنع اختبارًا للسحالي يوم الخبيز، وتركت لها المجال لتقول كلمتها. سأراقبها، وأمنحها حرية التصرف. لو كانت تريد قضمة من عجين أمي فلتحصل عليها. لو أرادت أن تمرح فلتمرح. عليَّ أن أظهر لها تكافل الإخوة، وعطف الأنبياء. خبأت نفسي على سلالم تقود إلى الدور العلوي، لكني مع الأسف استسلمت لحنو الشمس وغفوت، وحين استيقظت كانت أمي غارقة في نشيجها. جريت فزعًا باتجاهها، ووجدت العجين أكداسًا فوق بعضه، وليس هناك رغيف سليم. وبَّختني أمي. لكني لم أهتم بتوبيخها، قدر اهتمامي بذلك التعبير الخائف والمتألم في وجهها. كانت محطمة. بدا لي أن السحالي قد حوَّلت الاحتفال بيوم الخبيز إلى مأتم، وأنا لا أحتمل أبدًا بكاء أمي، وها هي تبكي، مشيرة إلى جوال الدقيق الخالي. احتضنتُها فاحتضنتني، وبكيت معها. لكني قلت لها إن علينا الآن أن نجمع أكداس العجين في الآنية، ونعيد الاحتفال من جديد، ونظرتُ إلى الشمس، لأعاتبها على إغفاءتي، فمنحتنا قليلًا من الوقت. وفكرتُ: حين أصل إلى الأربعين.. يجب أن تكون معجزتي هي خَبز الأرغفة، من أي شيء. من دقيق أو تراب أو رمال. من أجولة ممتلئة، أو فارغة. خلقه بمجرد النظر في الأفران الخالية. سيكون الرغيف ضخمًا بحيث يكفي عائلة، وستكون اللقمة مباركة، بحيث تسدُّ جوع فرد. نظرتُ إلى أمي كأنها تفهمني، وقلتُ لها وأنا أهز رأسي: «وعد!»، ورغم أن صوتي لم يغادرني هزَّت رأسها

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

موافقة، وابتسمتُ فابتسمتْ، وأنا ألوِّح لسحلية بسبابتي، كأنني أقول لها إن عليها أن تحذرني في هذا اليوم، فقد حصلت على إجازة قصيرة من النبوة، لإصلاح ما أفسدته، وكان عليها أن تقلق، لأنني أفكر في استبعادها من حيواناتي.

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

أكبر مكتبة للـكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

t.me/alanbyawardmsr

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

أعمى في غابة

راح بصرُ أبي ومعه راحتْ ذاكرته. بدا لي أن عينه كانت شباك حياة هائلة تستقر في رأسه، تمر الشمس منها فتضيء الذكريات القريبة، بينما تستقر البعيدة في عتمة، وحينما سقطت الستارة أمام الشباك أعتم كل شيء. صار رأسه مظلمًا. كرة سوداء قد يحدث - لأسباب لا نعلمها - أن تضيء لحظة، إضاءة ذاتية خفيفة جدًا، مثل لهب مصباح زيتي يشتعل بعد انطفائه بدون تدخل من أحد، فيتذكَر اسمي، صائحًا كما كتبوه في شهادة الميلاد بالخطأ «بوسينة. يا بنت يا بوسينة!». يستمتع بنطقه بشكل مبالغ فيه، حرفًا حرفًا، كأنه يتذوق حلوى، ويصفق بيديه كطفل.

وبدا لي أنه لم يعد محاصرًا فقط بالظلام في رأسه أو خارجه، وإنما أصبح سجينًا لمساحة محدودة. وسيطرت عليَّ فكرة واحدة - بينما أتأمله أحيانًا - إذا فقدت بصرك ستفقد معه القدرة على التنقل بحرية، إذ تصبح كل خطوة تخطوها موضع تفكيرك، وموضع تفكير الآخرين. يصير الناس عيونك، لكنها عيون مفتوحة على عالم لا تراه. كل مكان حولك يصبح موضعًا للشك، لكن كل خطوة ناجحة تصبح انتصارًا على الخوف، الخوف من السقوط في الحفر، أو الزلل في المطبات الصغيرة، أو الاصطدام بالحوائط، أو أشواك الزرع. تصبح حياتك محاصرة بين قوسين. الحذر والخوف. ولكي تعيش بسلام يجب أن تتقن الاثنين.

صار بيتنا الصغير - بهذا المعنى - ملعبًا ضخمًا بالنسبة لأبي. تناوبنا على قيادته من كنبته المفضلة في الفناء الصغير إلى الحمام. صار - بمرور الوقت - خطرًا على الطيور التي تمرح في كل مكان. صحيح أن أمي كانت تنتبه وتنادي على طيورها وتجمعها في ركن بعيد حتى يمر

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

بسلام، لكنَّ قدمه الضخمة كانت تعصف بالشارد منها، حتى إن هيبة الديك صارت موضع شك أمام دجاجاته، بعد أن دهس ساقه، وصار يحجل بشكل مخجل أمامها.

لم يعد الأمر متعلقًا بإعتام عينيه، بل بفقدان الذاكرة تدريجيًا. تخيَّلنا في البداية أنها حيلة لاستدرار مزيد من عطفنا، أو لجعلنا أكثر انتباهًا، لكننا تأكدنا - بمرور الوقت - أنه لا يقصد العطف ولا لفت الانتباه ولا أي شيء، وإنما كان هناك ما يمحو كل تفصيلة من حياته وأحلامه وأفكاره بأستيكة، كأن حياته مرسومة بالقلم الرصاص.

تحول إلى شبيه بكل الآلات حوله، الراديو الضخم المعطل، التلفزيون الغافي غالبًا، الغسالة البدائية - التي تحاول بشتى الطرق التهام يد أمي – لكن أحيانًا تصدر عنه حركة ما، غمغمة، أو بضع جمل غير مرتبة، فنعرف أن الإضاءة سقطت في عقله على حكاية واضحة، موقف قديم، صورة لشخص يحبه، أو حتى يكرهه، ويبدو كما لو أنه غادر مرحلة الآلة وضبط نفسه على موجة البشر. يرفع صوته ببضع عبارات تعيد إلى رؤوسنا صورته كشخص عادي منذ سنوات، يشبه كل الأشخاص العاديين في القرية، حياته محصورة كحيواناته في الطريق بين البيت والحقل، حتى إنه لم يشعر بتفوقي، إلا حينما بدأ الجيران يتحدثون بفخر عن نبوغي، وأقنعوه أن يؤجر بضعة قراريط يمتلكها ليصرف على دراستي.

أبعِد أو فلنقل إنه اعتبر نفسه طُرد من أرضه لسنوات. حزن قليلًا، لكنه بمرور الوقت وجَّه اهتمامه إليَّ. أصبح مقتنعًا بأن تفوقي سيمنحه أهمية ما، خاصة مع تخرجي، فقد أصبح أول طبيبة من القرية، لكنه ما لبث أن نسي دراستي وفخره بي، ونسي العالم، ونسي الحلم، ونسي نفسه.

كان عليَّ أن أستغل إجازاتي القصيرة في المذاكرة، إذ كان ضياع أي دقيقة، يهدد بإضافة سنة جديدة إلى السنوات الطويلة التي يحتاجها

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

الشخص للتخرج في كلية الطب، لكنني رغمًا عني شاركت في خدمته بالنصيب الأكبر من الوقت، وبما أنني أسهر مع أوراقي، وينامون في وقت مبكر، كنت أساعده في قضاء حاجته، وفاجأني بأمور غريبة.

في إحدى المرات طلب أن نتوقف بالقرب من الفرن البلدي، فتوقفت وأنا أمسك ذراعه، ولم يساعدني ضوء اللمبة الصفراء الصغيرة، على تبيُّن تعبير وجهه، أو ما يريده، وفوجئت به يرفع جلبابه بسرعة، كأنه أراد مباغتتي، أو ضمان عدم اعتراضي أو محاولة منعي له من الإقدام على تلك الخطوة. أطلق خطًا كثيفًا من البول بدا أنه لن ينقطع وأغرق الرماد أمام الفرن فانبعثت رائحة نفاذة خنقتني. أدهشني أنه لم يشعر بالخجل أمامي، مع أنه امتنع عن تقبيلي منذ كنت في السادسة من عمري، كأن دخولي المدرسة معناه انتهاء مرحلة الطفولة رسميًا، وبالتالي لا يجوز كفتاةٍ تقبيلي حتى من أبي.

كان في حاجة إلى حماية نفسه من نفسِه، قبل أن يكون في حاجة إلى حماية من العالم، لكن من القسوة التفكير أن أقرب الناس إليه استغلوا عماه للحصول على نصيبه من اللحم. كانت أمي تضع قطعة ضخمة أمامه، أكبر قطعة، وتحثَه جاهدة على أن يمد يده ويتناولها بنفسه. لا تيأس أبدًا - حتى - مع عدم اكتراثه البالغ، وتحوِّلها بأصابعها إلى قطع صغيرة. ترفعها إلى فمه واحدة تلو الأخرى، لكن أشقائي يغافلونها، ويسرقون بعض القطع، وكان عليَّ إما فضحهم فأصبح واشية، أو أصمت فيأكلني أذاهم. شاهدت أحدهم - ذات يوم - ينهي نصيبه من الدجاجة، ثم يُجهِز على نصيب أبي. ترك له فقط ظهرها، ورقبتها، ثم ذهب إلى أمي ليقنعها بأن عليها الاعتماد عليه - هو تحديدًا - من بين كل إخوته، فأبي يفضّله دونهم، إذ يصبر على بطئه البالغ في لوك اللقيمات، وبلعها، أو طردها من فمه كالأطفال، وتصدقه، لكن بقية إخوتي لاحظوا شرَه البالغ، وهددوه أن يكشفوا السر لي ولأمي إن أصرَّ على احتكار طعام أبي لنفسه، ولم يشاركهم فيه.

تدخلتْ حينما استفحل الأمر، فقد بدأوا يأكلون نصيبه من اللحم

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

بالكامل، حتى الجلد والدهن والعظام ضنُّوا بها عليه، وكانوا كذلك يحصلون على أصناف الطعام لا اللحم فقط. يستلونها بخفة من أمامه فلا تصدر صوتًا، ويجهزون عليها، حتى إنهم كانوا يلحسون بقاياها، ثم يفاجأون بفراغها كأن أشخاصًا غيرهم من التهموها. لم يكن أمامهم إلا صناعة فتة بدائية لأبي من الخبز الناشف، يخلطونه بالماء، وفي أفضل الأحوال يسكبون عليه الشاي، أو يضيفون إليه القليل من اللبن، وحينما أبلغتُ أمي لم يتوقف بكاؤها أيامًا، لكن إخوتي طيبون على العموم. قبَّلوا يديها ورأسها وأقنعوها بأنهم لن يعودوا إلى ما يفعلونه أبدًا، فاقتنعتْ، وفي اللحظة المناسبة حين عادت الابتسامة إلى وجهها، عادوا لاقتسام طعام أبي. سمعت أكبرهم يقول للباقين إنهم لن يكونوا أكثر حنانًا عليه من خالقه. همس لهم، بينما يجمعون آذانهم في دائرة حول فمه: «سَهِّي الأعمى وكُل عشاه. مش هتكون أحنَّ عليه من اللي عماه» وضحك فضحكوا.

بدأ أبي يجرِّبُ نفسه خارج البيت بدون أن يعتمد على أحدنا. نهض فجأة - ذات صباح، وكنا نائمين - متوكئًا على عصاه، ثم - بعد قليل - سار في الشارع. كان بالنسبة لي شخصًا يسير برأس كالصندوق الفارغ، بلا مخ، بلا ذاكرة، بلا فكرة، بلا مشاعر. آلة تعمل بروح صماء بدلًا من الكهرباء أو الوقود، لكنها لا تملك قدرة على التحكم في شيء، ولا في نفسها حتى. هذا الشخص يبدو مثل طُعم حي وجد نفسه معلقًا في صنارة، والوحوش ذات الزعانف تمرح حوله، لكنه في مغامرته الأولى نجا من كل الأخطار. فكرتُ أي شيء قد يكون خطر على رأسه بينما يسير في الظلام، إن كان بإمكان الأفكار أن تخطر له أحيانًا؟! وفاجأني بإحدى إجابات تلك اللحظات العبقرية. كأن الموتور قد استجاب أخيرًا وأصدر ذلك الصوت المزعج المحبب، معلنًا العودة للعمل. شعر أبي - على الدوام - بأن طبقة الظلام خارج رأسه أثقل من الظلام داخله، كأن عقله محاط بطبقة من الضباب الخفيف، لا تقهرها الشمس، بينما يحيط الظلام رأسه بأمواج من الماء، وبالتالي بدا له السير أكثر خفة في

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

الصباح عن المساء.

كان أبي يعلم إذن أن الوقت مبكر ليفعل هذا وفعله. طرق أول باب صادفه، وكان جارنا يتأهب للمغادرة إلى الحقل على ظهر حماره، وأفزعته الطرقات، ورغم دهشته الشديدة من وجود أبي في الشارع الآن، وفي طرقه الباب بكل هذه الثقة، إلا أنه رحَّب به، وقاده إلى الداخل. سمعنا الحكاية بتفصيلاتها بعد دقائق، إذ أيقظَنا طرقُ الجار بدوره على بابنا، وطالعنا وجهه الخجول وتلعثمه، حتى إنه ظل دقائق يقول كلامًا غير مفهوم.

أبي ذهب إلى جاره ليعتذر له عن حياة الخطيئة التي يعيشها منذ سنوات إلى جوارهم، ولم يفهم الجار في البداية ماذا يقصد، لكنه فهم أخيرًا أن أبي نسي زواجه من أمي، بل نسي أن له أبناء، وصارت أمي في حكايته امرأة ما تعيش معه في بيت واحد، بدون زواج، لكنه - لحسن الحظ - جعلها امرأة نبيلة، صادقة، نظيفة، طاهية معتبرة، رفيقة بالحيوانات. ثم اعتذر أبي للجار، ولزوجة الجار، ولأبناء الجار، وطلب منهم أن يعتذروا لجيرانهم، وجيران جيرانهم، وللقرية كلها، وللقرى المجاورة، وها هو يعلن أمامهم أنه يريد إصلاح الخطأ، وأقنعه الجار بأن كل شيء على ما يرام، وأن له ما يريد، لكن عليه أن ينهض ليعيدوه إلى المنزل. أمسكت أمي بيده، فنظر إليها بعين زرقاء داكنة، وعين مغلقة على الدوام، وبدا كما لو أنه سيطلب منها السماح. تغضَّن وجهه فشعرت أنه على وشك البكاء، أراد أبي ربما أن يقول لأمي بعد هذه الأعوام الطويلة إنه يحبها، وربما فقد ذاكرته لأجل هذا السبب، ولو أنه ظل غارقًا في حياته العادية، لما أظهر لها لمحة حب واحدة، فمن العيب على الرجل أن يكون رقيقًا إلى هذه الدرجة المخجلة.

عدنا إلى الداخل وكان إخوتي قد استيقظوا وبدأوا التفتيش في الأواني عن أي طعام.

بعد يومين على هذا الموقف أعادوا لنا أبي من عزبة بعيدة. لم أصدق

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

في البداية أنه وصل بمفرده إلى هناك، كان خروجه في هذا التوقيت المتأخر خطرًا، والمشكلة أنه لا يتذكر ما مرَّ به ليحكيه لنا، حتى إننا وجدنا ملابسه ممزقة في الفخذ في المرة الثالثة، وآثار عضة لفم صغير، وبكت أمي. أمي لا تجيد التعبير عن مشاعرها إلا بالبكاء. أصرت على أن نذهب في الصباح إلى الوحدة الصحية، ومنها ذهبنا إلى المستشفى في المركز. بدا أبي سعيدًا بحركته السهلة في الشمس. تصرف كأنه في نزهة، إذ كان يتلفت حوله، كمَن يتأمل البيوت والأشجار وأعمدة الإنارة والحيوانات والعصافير، وسألت نفسي إن كان يتذكرها بدقة، أو طرأ تغيير ما عليها في عقله؟! لكن أبي مع الأسف بحسب اعتقاد ترسخ داخلي - وأنا أتأمل جسده الساكن معظم الوقت - من نوع العميان سيئي الحظ، لكنه ليس أتعسهم. العميان ثلاثة: شخص فقد بصره في مرحلة ما من حياته، ويظل في أفضل الأحوال يجاهد ليستعيد أشكالًا وصورًا بدت بالأمس القريب في وضوح الشمس، لكنه لم يلق لها بالًا في كثير من الأوقات. وشخص ولد أعمى، لا يعرف حقيقة الحياة حوله، ولا جرَّب زغللة الألوان حين يفرك عينيه، ولا تأثير الضوء على شعر حبيبه أو لون عينيه، لكنه مع هذا أفضل حالًا بكثير ممن فقد بصره فجأة، إذ يشيِّد عالمًا خرافيًا مبهرًا. وشخص يرى جيدًا، لكنه لم يغادر قريته، ولم يعرف سوى نوع واحد أو اثنين على الأكثر من الطعام، والملابس، والعلاقات، والآلهة. هذا هو الأعمى الأسوأ حظًا من كل البشر.

بدت الطبيبة محتارة وهي تقيس المسافة بين ثقبي النابين المتجلطين في فخذه، فهل تفكر في حيوان آخر عضه غير الكلب؟! ربما ذئب، وربما ثعلب. من يدري! الذئاب في حكايات القرية نادرة، لكنها موجودة، وخطرها مميت، لا تأكل بشريًا، بل تمزق ساقه، وربما تعضه في رقبته، لا يفكر أحد في جمالها، وإنما في أنيابها، وكراهيتها لنا، أحيانًا تبقر بطون حيواناتنا، ثم تختفي. لا نعرف أين تقيم، تبدو بعيدة ونحن نتحدث في حماية الشمس، لكنها بالنسبة لنا في المساء تكمن على بُعد سنتيمترات من أسرَّتنا، أما الثعلب فوسيم، وجبان، ويخاف

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

على هيبته، ولا يكترث بمن ينظرون إليه باعتباره صائد فرائس تافهة. حكى أبي لي أنه شاهده مرةً واحدةً وسط زهور السوسن، فبدا كأنه يسبح في ألف درجة من الأزرق والبنفسجي، بجسد ذهبي جميل. رفض كل منهما أن يتحرك أولًا. تبادلا الشعور بالخوف، ومع هذا لم يشأ أبي أن يكون البادئ بالتراجع، فمن يدري، قد يشعر الثعلب بأنه جبان فيهاجمه.

استبعدت الطبيبة الثعلب، وأرادت حصر الأمر في الكلب. نظرت إلى أبي بحيرة، فهمث من كلماتنا البسيطة في بداية وقوفنا أمامها أنه لن ينطق، وكان سبب رغبتها في اتهام الكلب أن نصل إلى مكانه ونقتله، ولو لم نجده، أو إن لم نستطع تمييزه عن بقية الكلاب - تقول الطبيبة - علينا أن نقتلها جميعًا، أما الذئب فبدا لها ولنا كالمتهم العتيد الهارب. وغمغمتْ أخيرًا، بما يعني: لا عليكم، وطلبت منا الحضور لحقن أبي في بطنه بالمصل، يوميًا، طوال ثلاثة أسابيع. أشحت بوجهي بعيدًا عن إبرتها وهي تنغرس في جلد بطنه، فرأيت ثعابين سوداء متماثلة على قنينات بُنيَّة داكنة. www.maktabbah.blogspot.com

في الأيام التالية قررت الحذر. إذا هاجمني النوم أقاوم، لكن مقاومتي كانت تنهار، وأفوت فرصة تتبع أبي، رؤية طريقته في التحرك منفردًا إلى الشارع، لكنني أستيقظ بعد ثوان مرتبكة، أطالع جسده ممددًا على الكنبة، فأطمئن. قرر إيقاف مغامراته كأنه يعرف بمراقبتي له، لكنني استيقظتُ مرة ولم أجده، ارتديت حذائي سريعًا، وذبت في الشوارع. لم أكن خائفة من توبيخه لي بعد خروجي من البيت كما كان يفعل، فمثل هذه الأمور سقطت ضمن أشياء كثيرة في العتمة.

نظرتُ إلى الأرض كأنني سأرى أثر خطواته، لكن التراب لم يفصح عن شيء في الضوء الشحيح. شممت الهواء، ولا أدري لماذا أقدمت على هذا التصرف، كأنني سأتبع رائحته، ثم راقت لي الفكرة، رغم أن الروث كان قد تخمَّر على مدار ساعات وزكم الجو، ومن عطفة إلى عطفة، حتى سمعت أصوات جلبة، وفهمت من النباح المتقطع أن هناك اجتماعًا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

لشلة كلاب. هذه الكائنات تصبغ وجوهها بالمسوح في الصباح. تسير بجوارنا كأنها أصدقاؤنا محتمية بالكبار من بطش الصغار، لكنها في المساء تخلع أقنعة الطيبة لتبدو وجوهها الحقيقية المتنمرة، إذا لم تجد قطًا أو عرسة أو نمسًا أو شخصًا يمر بالصدفة لتتشاجر معه، فإنها تبدأ في مضايقة بعضها. رأيتها في شبه دائرة، ثم أبصرت أبي في القلب منها، وتحول خطوي السريع إلى جري. أطلقت ما يشبه صيحات حرب، لكن الكلاب لم تسمع. كانت متحفزة، بآذان مشرعة، وذيول تشكل بها أشباه دوائر، بينما أبي يقف محركًا عصاه في جميع الاتجاهات. يا لتلك الحيوانات القاسية. إنها تعرف جيدًا مِن تخبُّطه أنه لا يبصر، ومع هذا لم ترحمه، وربما تفكر في إيذائه على سبيل المرح، أو على سبيل الانتقام من أحد صغارنا، ورغم خوفي الغريزي منها إلا أنني لم أتوقف، مع الاعتراف بأنني لم أستطع طرد الرعشة التي ضربتني، وحاولت إحداث جلبة بقدر المستطاع، لإعلان قوتي، وللتغطية على رعشتي، ثم قبل مترين أو ثلاثة نظر كلب إليَّ، وأطلق نباحًا قويًا، ونظرتْ بقية الكلاب، واتخذتْ القرار بسرعة مهرولة إلى الجهة الأخرى. حاولتُ بقدر الإمكان أن تجعل انسحابها رزينًا حرصًا على صورتها أمامي، أمام فتاة..

www.maktabbah.blogspot.com

لكن تلك الصورة اهتزت بالكامل بعد قليل، بالقرب من بيتنا..

شممت رائحة الصيد القوية، وطبقات الدخان الكثيف، ورأيت النار تشتعل في جسد كلب يحاصره عدد من الصبية، ويضربونه بجريد ناشف، وبقضبان حديد. يعرفون أنه لو استمر حيًا دقائق والنار ترسل شرارات متتابعة من جسده، ربما يشعل حرائق في بيوتهم. كان نباحه مرعبًا ومؤلمًا. يعرف هذا الكلب المسكين أن حياته انتهت، ومع هذا يستنجد بأقرانه. وقف أحدها على بعد مائة متر تقريبًا يشاهده يتخبط في الجدران، ويشم معنا رائحة جسده وهو يتفحم. لم يكن هناك شيء بيدي أفعله له، ولا لهؤلاء الصبية، فهم لا يرتدعون، رغم أنهم يتعرضون لضرب قاس من آبائهم، لكنني فكرت في حفلات التنمر الليلية اليومية،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
والفخاخ التي تنصبها الكلاب للبشر، والبشر للكلاب، كأنهم في حرب سيطرة على عالم الليل، رغم أنهم يتشاركون عالم الصباح، وفكرت أن عضة الكلب قابلة للشفاء بينما عضة الإنسان مميتة.

لم يبد على أبي أنه يشعر بأي شيء، حتى إن وجهه ظلَّ على تعبيره الثابت المطيع. توقف لأنني توقفت، وها هو يبدأ السير حينما أحرك يده كأنني أسوق حيوانًا أليفًا، ثم بدأ صياح الجيران يعلو بعد أن خنق الدخان أحلامهم وأفزعهم وأجبرهم على فتح الأبواب.

كانت الكلاب تأخذ حذرها لفترة، وتبتعد عن الشوارع الخطرة، وكان على الصبية أن يجدوا تسليتهم في هذا التوقيت المتأخر، وهي مهمة صعبة بعكس بداية اليوم. إذا وجدوا رجلًا أعرج يسيرون صفًا إلى جواره مقلدين حجلته، وانثناء جذعه. يفتحون أفواههم كما يفتحه، ويضحكون، لكنهم يتوقفون بمجرد أن يعبر شخص صحيح، وبعد ثوان من اختفائه يلحقون بالأعرج وهكذا. إذا رأوا أطرش يغافلونه ويشدون شعره من الخلف. إذا شاهدوا أخرس يجرون باتجاهه ويقلدون صوته المبهم. ينتظرون حتى يعبرهم بخطوة أو اثنتين ثم يصيحون في ظهره بمزيج من الأصوات المتنافرة، عواء، ونباح، ومواء، ونقيق، ونعيق، ونهيق، حتى إنهم يعتقدون أن بإمكانهم تقليد الخرير، والهزيم، كما يطلقون صيحات بربرية، ولا يتوقفون إلا حين يبكي، فقد حصلوا على متعتهم.. يصيح أحدهم أن أشباه الأشخاص هؤلاء عديمو نفع، ويصيح آخر أنهم ديدان، يلتهمون طعام الأصحاء، ويتلفون الزرع والمحاصيل..

وها هم يجدون أنفسهم في مواجهة أبي بينما يسير في جولته الليلية. حينما شاهدتُهم خمَّنت أنهم يحاصرونه منذ مدة، فقد بدا عليهم - هم أنفسهم - التعب ربما من كثرة الضحك واللف حوله، بل إن أحدهم مرَّغ نفسه في التراب تعبيرًا عن استمتاعه البالغ، ورأيت أحدهم - بينما أصرخ فيهم من بعيد - يلكزه في صدره فيصطدم بآخر منحنٍ على الأرض في وضع كلب، فيسقط ويتألم. بكيت وأنا أجري من بعيد، وصرخت، لكن شقوق البيوت ابتلعت صراخي، ولم تقلق سوى نوم

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

العقارب. قسوت على نفسي، وأجبرت رأسي أن يظل مشتعلا كمصباح طوال الليل. لا أنام إلا مع استيقاظ أمي، لو حاول أبي الخروج إلى الشارع أقنعه بأن يعود إلى نومه ليحصل على قسط من الراحة، أو أصحبه في جولة لعدة أمتار في شارعنا، لكنني في كل المرات - التي يغلبني فيها النوم ويهرب أبي - أصل متأخرة، وألوم نفسي بقسوة.

لاحظت أمي أنني أبكي فبكت قبل حتى أن تسأل ما الأمر، ورأيت أيدي إخوتي تتعارك في قصعة فخارية سوداء، ففهمت أن أمي تُخرِس بطونهم بفتَّة اللبن والسكر.

www.maktabbah.blogspot.co

توقف أبي عن التوجُع، ومرت أمي على بيوت الصبية، وبكت أمام آبائهم وأمهاتهم، وهي تنقل لهم ما سمعته مني، عن حفلة تعذيب أبي، فجاؤوا ليطيئبوا خاطره. يتقدم الرجل وتتبعه المرأة. يقبلان يده، أو رأسه، بينما يقف الصبي بوجه تظهر عليه علامات الضرب بالعصي والأحزمة، مطرقًا وراسمًا الخجل، محاولًا استراق النظر، فيفضحه اتساع بياض عينيه، ثم يتقدم بدوره حين يشير له أبوه بغضب ويقبِّل يد أبي ورأسه. جاء الجميع، ومع آخر صبي لاحظت أن هناك بصقة بيضاء كبيرة تستقر على يد أبي، وفكرت غاضبة أنه قد استمرأ فقْد حواسه واحدة وراء الأخرى، فكيف لم يشعر بملمس البصقة الزلق؟! كيف لم يشعر أن آخر صبي تعمَّد إهانته؟! كيف لم ينتبه إلى أن قيام آخر صبي بالأمر معناه أن هناك اتفاقًا بينهم؟!

جاء إخوتي كذلك وبدأوا في تقبيله، لكنني فشلت في فهم ما يفكرون به.

رفض أبي الحركة في الصباح، لقد ثقبوا جلد بطنه بمصل الكلب عشرين مرة، ويبدو أنه يتمرد، لكنه تأخر في تمرده حتى الحقنة الأخيرة. فشلنا في حمله من الكنبة، وقد شعرتُ بأن وزنه أثقل، خاصة وهو يرخي كل عضلة في جسده، وفكرت أن بإمكانه الاستغناء عن الحقنة، رغم أنني لم أجرؤ على التصريح بذلك أمام أمي، ربما تصيح:

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
«دكتورة تقول كدة؟!» ومعها كل الحق طبعًا، ويبدو أنها وجدت حيلة لإقناعه بالحركة. همست في أذنه ببضع كلمات، وبدا كأن أنفاسها نفضت التراب عن عقله، فأيقظته، وأزالت كل تقطيبة من جبهته، لدرجة أنني فكرت أن ذاكرة أبي رُدَّت إليه، لكنه استمر في أداء شخصية الكفيف ذي الذاكرة المتحللة، وفهمت منها أنها تذكرت مكانًا يحبه، قضى أجمل أيام إجازاته فيه، يقرأ ويأكل وينام. قدناه إلى مضيفة عائلتنا، ذات الغرف والأبواب والكنب الوثير، مضيفة تظللها شجرة جميز عملاقة، تنتصب في شموخ، حاملة قرية من الأغصان والأوراق والثمار حلوة المذاق، وكانت الخطة أن نتركه دقائق هناك، ثم نتحرك به إلى المركز، كأننا ننتظر منه مكافأة على تذكُّرنا شيئًا يحبه.

في المضيفة رأيت أحد الصبية أنفسهم يقف تحت الشجرة متطلّعًا إلى أعلى، ينادي على أقرانه. كانت الأوراق الكثيفة تحجبهم. تذكّرت أن هذا ليس موسم جني الثمار، إذ إنها ما زالت نيئة، لكنني تجاهلت أمر الصبية والشجرة، وقدت أبي بمساعدة أمي إلى بضع سلمات تفضي إلى الكنب الوثير، أمي من ذراع، وأنا من ذراع. فكرت أن أبي حصل على مكاني المفضَّل القديم. توسطتهما - طوال سنوات - كان كل منهما يمسك بذراع، ويعدَّان من واحد إلى ثلاثة، أو يصيحان: «هوب» ويحملانني من الأرض، فأرفع قدميَ وأضمهما إلى جسدي وأطير، وأطلب منهما أن نكرر الأمر، مرة واثنتين وثلاثًا، غير عابئة بإرهاقهما، أو تذمُّرهما، لكننا الآن هنا في الحاضر، وفي الحاضر علينا أن ننتبه إلى موضع أقدامنا دومًا، علينا أن نعيش لحظات ألمنا، فهذا أفضل من الغرق في أوهام، أو في صور لم تعد موجودة. نحن لا نجني من محاولة التذكر واستدعاء الماضي السعيد إلا التعاسة. كان أبي أفضلنا حالًا فقد دفن الحنين في القبر الذي يستقر أعلى رقبته، في رأسه. وها أنا تلوح لي خاطرة الآن، أن الحياة مزيج متنافر من الأحداث، وليس بمقدورنا أن نرتِّبها بسهولة كما نرتِّب علبة ألوان حتى لو أتيحت لنا القدرة على ذلك. فقط علينا أن ننسى كل مرحلة بمجرد أن نعبرها.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

ثم انتبهث.. فبينما نُجلِس أبي، سمعنا صوتًا عاليًا، وتحركت الشجرة، وبدا كما لو أن فروعها أصيبت بالجنون. فهمت في لحظة أن الصبيةَ في الأعلى يحاولون مضايقة الوطاويط النائمة في الظل، ونجحوا، إذ إن السماء امتلأت بها. وجوهها هجين بين الفئران والثعالب، كأنها بأجنحتها الشفافة كائنات من عالم آخر تطير بمظلات. كانت فزعة وغاضبة، وتتخبط في جميع الاتجاهات، حتى إن بعضها حلّق على مسافات قريبة منا، وعبرَ الشبابيك والأبواب. لم أفكر سوى في أبي. وضعت يدي على عينه الزرقاء، كأنني أخشى أن يخطفها وطواط، تاركة العين الأخرى، فبإمكان الجفن المسدل إلى ما لانهاية حمايتها. ضحكث أمي، كأنها تسألني بسخرية ماذا تفعلين؟! نظرت إليها بلوم، ولم أرفع كفي عن عينه إلا بعد أن هبط الصبية من الشجرة، وعادت الوطاويط إلى مهاجعها، فتنفستُ، وضحكتُ حتى أطمئن أمي أنني لم أعد متضايقة منها. ظهر أحد إخوتي ممسكًا بجميزة خضراء، وبدا لي - بخربشات وجهه – أنه قد هبط للتو من الشجرة. مسح الثمرة وقضمها، ورأيت لبنها ينز من فمه، ويبدو أن طعمها اللاذع أصابه بالصدمة، فقد انطبقت ملامحه على نفسها، ومع هذا ابتلعها، وقال كأنه اكتشف حقيقة جديدة: «طعمها حنضل»، فضحك أبي فجأة، وشعرثُ أمي بالسعادة، وقبَلت أخي على هديته غير المنتظرة، بينما تطلعتُ إلى عين أبي الزرقاء ووجدتُها تومض، كأنها تعكس إضاءة البرق في حطام ذاكرته.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

القط

نصف نوبة حراسة

في منتصف حملها عرفت المرأة الأربعينية أنها ستلد قطًا. لم تكن مندهشة، كأن ولادة النساء للقطط أمر طبيعي. كانت قلقة بعض الشيء، ففي القرية لا يكف الناس عن زجر القطط، ويعتبرونها تسليتهم معظم الوقت. يكمن الأطفال لها، ثم يظهرون كالأشباح فجأة من خلف الحوائط لإرعابها، وإن ماءت بخوف، إن قفزت في الهواء، إن ارتبكت خطواتها، يحقق الطفل متعته، بينما يعتبرها الكبار أهدافًا متحركة، يصوبون عليها ما تطاله أيديهم من الأرض، والفائز من يستطيع إصابتها في الرأس، لكن الصغار والكبار يعطفون عليها أيضًا، بشرط أن يتوفر الطعام، ولم يكن يتوفر إلا قليلًا.

لم تكن تسمية الطفل في يدها، أو في يد زوجها أو عائلتها، إذ إنه مُقدَّر. تعرفه كل القرية مسبقًا، ثم إن كثيرين بدأوا ينادونها به، نسوا أنها زينب وصارت بالنسبة لهم، قبل الولادة بشهور «أم قط». صارت أكثر اهتمامًا بالقطط. صحيح أنها كانت طيبة معها، تضع لها الفتات على الأرض، وأحيانًا تلقي إليها بجلدة لحم انتزعتها للتو من إناء يغلي، أو ذيل سمكة، أو حتى زعنفة، لكنها في الأغلب لا تلقي بالًا لها، تراها مجرد أطياف سوداء ورمادية وبرتقالية وبيضاء، تمرح في البيت، من غرفة إلى غرفة، ومن سلم إلى سلم، ومن سطح إلى سطح، وها هي ستصير أمًا لواحد منها، وبالتالي بدأت ترقب حركتها، كسلها، تمطيها، تلمظها، تثاؤبها، نزقها، ونداءاتها المزعجة على إناثها، بصوت يتراوح بين «آوووو» و«داوووود».

زوجها لاحظ أن بطنها تضخم، فأخبرها بأنها ستلد توأمًا. تيقنًا من هذا حينما كان بطنها ينتفخ من جميع الاتجاهات، بأرجل وأكف التوأم. كان

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

يضحك ويقول إنه سيكون أبًا لأخطبوط، لكنها لا تضحك، وتبدو مندهشة وغاضبة قليلا لأنه يضحك. عليه أن يقلق. لو صح هذا الكلام. لو كانت تحمل في بطنها اثنين، فإن الصغير منهما سيعاني حتى فطامه من الحياة في جسدين، وفي عالمين. سينام كطفل بشري يوميًا، لكنه قبل أن يبدأ في الحلم، تغادره روحه، تنطلق عبر شيش الشباك، إلى السماء، تحلق وتحلق وتحلق، مستمتعة بالنسيم، وبرائحة خوف العائدين في أوقات متأخرة وبالطيور النائمة وارتجافاتها المفاجئة كأنها تعاني في حلم، وبقدرتها على الرؤية من أعلى، وبمراقبة القطط، ثم تختار أحدها وتحل به.

يموء القط، ويدرك أن أرواحه السبع صارت ثمانيَ في تلك اللحظة، وأنه تحوَّل إلى كائن صغير بائس، تقوده روح مجهولة تخص كائنًا ما آخر، ليس من جنسه، ولا يعود باستطاعته أن يتحرك، أو يشعر، أو يرى، إلا كما تريد تلك الروح.

بكت زينب، فوضع زوجها يده على رأسها. سرى إليه قلقها. أغلق فمه الضاحك على تعبير غاضب، وانتبه إلى أن التعبير المناسب هو تعبير الحزن، فغيَّر وضع فكه وشفتيه.

عاشت زينب في هذا البيت الواسع مع زوجها. بعد أن مات أبوه تبعته أمه منذ سنوات بعيدة. كان مدهشًا لها أن تمتلك بيتًا يشبه قصرًا، بفناء واسع، وطابقين، ومجموعة كبيرة من الغرف. لكنهما مثل غيرهما، لا يمتلكان الكثير من المال. حاولت إقناعه بأن يبيع جزءًا من البيت حتى يدبِّرا طعامهما، دون أن تضطر في بعض أيام الشهر إلى طرق أبواب الجيران وهي تحمل أطباقًا فارغة، لكنه رفض. يفكران باندهاش. بعض الناس يملكون بيوتًا أسطورية، لكنهم ينامون جائعين. كلما ازداد البيت اتساعًا ازدادت وحدتهم، ويتضاءلون كلما ازداد جوعهم، وبدلًا من أن تطمئنهم الجدران العالية والغرف الكثيرة فإنها تذكِّرهم بخواء حياتهم وبطونهم.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

ظلا - طوال هذه السنوات - ينتظران طفلا، حتى يئس ويئست، لكن السماء - على ما يبدو - قررت تعويضهما عن ملل الانتظار بطفلين دفعة واحدة. بدا زوجها سعيدًا في بداية الحمل، وزادت سعادته بعد أن اكتشفا أنهما توأم، لكنه أصبح قلقًا بعد أن بدأ الجيران يتحدثون عن أسطورة القط المنتظر. طمأنوه - أو حاولوا - قائلين إنهم لا يقربون القطط في المساء، خاصة السوداء، خوفًا أن تكون أوعية للجن. يعرف أن هناك بعض التوائم في القرية، يمرحون في أجساد قطط. يتركهم الجيران يأكلون بقايا لحومهم. حين يسمعون صوت ارتطام الأواني بالأرض يعرفون أن القطط تعبث، وبالرغم من هذا لا يضايقونها، لكنهم يحرصون فقط على إغلاق غرفهم جيدًا عليهم، حتى لا تراهم القطط عرايا أحيانًا.

أصبح مثل زوجته أكثر حرصًا على التقرب من القطط، يمسّد أجسادها القذرة، ويضع لها نصيبه من اللبن في أطباق صدئة، وأسعد هذا «أم قط» إلى درجة بالغة، فتلك القطط ستكون أجسادًا طيّعة لروح ابنهما. صار لديها يقين بأن تلك القطط ستعرف أن روح ابنهما تسكن هذا البيت، وأنها إن خرجت منه فلا بد أن تعود إليه، وكما اهتمت بها سترد المعروف إلى روح ابنها، وتحرص على ألا تصيبها بأذى مهما كان شطحها، ومهما استعرتْ رغبتها في المغامرة.

جاء قط إلى الدنيا بعد أخيه بنصف ساعة. قط وسيم، وأبيض، وأخوه ذو ملامح عادية، وأسمر. لا ليس أسمر، وإنما في لون التراب تقريبًا، ومن فرط اهتمام الأبوين بقط، نسيا تسمية أخيه يومًا أو اثنين. ملأ غبارٌ في ذلك اليوم القرية، وحين سألت «أم قط» زوجها ماذا يسميان الأكبر؟! قال وهو ينظر إلى السماء الرمادية: «غبارة!»، فأصبح فيه شيء من اسمه.

أهملت أم قط «غبارة» على الدوام، إذ كانت فرص بقائه على قيد الحياة أكثر من فرص قط، حتى ولو نسيت إطعامه ساعات طويلة. كان عليها أن تترك قط ينام بمفرده، مع الحرص على إغلاق باب غرفته،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

حتى لا يحاول أحد إيقاظه أو يقلق روحه التي تهيم في شوارع القرية، وحتى لا يُعدِّل أحد من وضع جسده الهامد. لو عادت تلك الروح ووجدت جسده في وضع آخر، لو لم تتعرف عليه، ستغادر بلا رجعة، ويموت طفلها. طرقت أبواب جاراتها، بيتًا بيتًا. قبّلت أيديهن يدًا يدًا، ورؤوسهن رأسًا رأسًا، طالبة من كل واحدة ألا تضرب أي قط يعبر بيتها في الليل، ألا تلقي عليه حجرًا، أو قالوحة، أو حذاء، ألا تضربه بعصا، أو هراوة، أو قطعة خردة، أو جزءًا من إناء فخاري، أو حديدة، أو إطار دراجة. لا تترك المرأة منهن إلا حين تعدُها، وتُقسم لها، وتطمئنها أن أطفالها يكونون نائمين في الأوقات المتأخرة، فتأمن القطط أذاهم.

أدهشها دومًا أن ابنيها ليسا متماثلين. قط في بياضها، ويشبهها، أما غبارة فلا يشبه أباه، ولا أجداده، ولا أي أحد في القرية. بدا لها منحوتًا من جبل التراب في قرية «القصر»، وكانت تفكر في طفلي جارتها المتماثلين رغم أنهما ليسا توأمًا. الحسن والحسين. الحسن يسبق شقيقه بعامين، ومع هذا يناهزه في الطول، وفي كل شيء. في الشعر الأسود الكثيف الجميل المنسدل على الجبهة، وفي الأنف الدقيق، وفي البشرة الصافية، التي تصبغها الشمس بحُمرة خفيفة، بينما تصبغ بقية الأطفال بسمرة كالحة.

تؤمن زينب أن الشمس تُحب وتكره، تخلق نساءً في بياض الثلج، ونساء خمريات. نساء من النحاس الأحمر، ونساء من البرونز، تمنحهن نضارة زهور الفول الأخضر، واعتداد عبّاد الشمس، لكنها تحجب أي مقدار للجمال عن نساء أخريات. تتركهن بلا لون، صفراوات، وشاحبات كرماد الفرن، مع أنهن جميعًا يأكلن نفس الخبز، ويشربن نفس الماء. كانت امرأة محظوظة، رغم أنها لم تكن طفلة محظوظة. كلما انكسر لها سن أو ضرس، تقف على سطح البيت، وتلقيه للشمس، صائحة فيها بحماس بالغ أن تأخذ سن الحمار وتمنحها سن غزال، لكن الشمس كانت تمنحها سن بقرة، ضخمةً ومربعةً، وبالتالي أصبحت زينب امرأة جميلة

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

بشرط ألا تفتح فمها.

جلستْ كل صباح - طوال حملها - في ركن من البيت، تُعرِّض جسدها لقليل من الضوء، على أمل أن تمنح الشمس طفليها جمال طفلي جارتها المتماثلين، لكنها حكمت عليهما أن يكونا من ضوء وتراب. إذا فتح قط عينه في الصباح تعلم أنه سيعيش فقط إلى المساء، وإذا حل المساء لا تكون هناك شمس لترعاه. كان عليه حماية نفسه إذا حلَ القمر أو هجمت العتمة. كانت الشمس ترعاه، لنصف دوام فقط، لكنه - على الأقل - أفضل من أخيه، إذ إن غبارة لم يكن محميًا سوى بملامح بليدة جعلته بعيدًا على الأقل عن حسد العواقر. لم يكن محميًا من أي شيء، كل شيء يكرهه، من التراب إلى الزهور، إذ كان مصابًا بحساسية قاسية، جعلت صدره يطلق نغمات متداخلة تشبه وشيش راديو قديم.

ترى زينب الأطفال يوقفون الحسن والحسين في الطريق، يحددون لأحدهما مسافة أمتار يقطعها جريًا، خاصة في أيام الشتاء، إذ كانت تيارات الهواء القوية الباردة تطيِّر شعره الفاحم، بينما كانت شعورهم المجعَّدة، تشبه ألياف جذوع النخل، لا تتحرك من مكانها حتى ولو هبَّت عاصفة.

كان الاثنان يستجيبان لهم، يتركان الدفء يسري فيهما، ويحصلان على متعة الزهو كاملة حينما يريان انبهار الأطفال. فكرت زينب - وهي تسمع حكايات جدة الحسن والحسين - في فوائد التشابه. كان أحدهما يحل بديلًا للآخر في المدرسة، وينوبان عن بعضهما في مرافقة الأصدقاء، ويقسِّمان حضور العزاءات بالتساوي، رغم أن الأب نصَّب الحسن مندوبًا عنه باعتباره الأكبر. الأب نفسه يخطئ في التفرقة بينهما، خاصة وأنهما يرتديان نفس الملابس، ويفضلان نفس الألوان، ونفس الأحذية، ويمشطان شعرهما بنفس الطريقة، ويبتسمان، ويضحكان، ويكشران، وينطقان، ويهمسان، بنفس الأداء، وحينما ينظران إلى بعضهما يبدوان كأنهما يتطلعان في مرآة. إنهما أكبر دليل

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

بشرط ألا تفتح فمها.

جلستْ كل صباح - طوال حملها - في ركن من البيت، تُعرِّض جسدها لقليل من الضوء، على أمل أن تمنح الشمس طفليها جمال طفلي جارتها المتماثلين، لكنها حكمت عليهما أن يكونا من ضوء وتراب. إذا فتح قط عينه في الصباح تعلم أنه سيعيش فقط إلى المساء، وإذا حل المساء لا تكون هناك شمس لترعاه. كان عليه حماية نفسه إذا حلَّ القمر أو هجمت العتمة. كانت الشمس ترعاه، لنصف دوام فقط، لكنه - على الأقل - أفضل من أخيه، إذ إن غبارة لم يكن محميًا سوى بملامح بليدة جعلته بعيدًا على الأقل عن حسد العواقر. لم يكن محميًا من أي شيء، كل شيء يكرهه، من التراب إلى الزهور، إذ كان مصابًا بحساسية قاسية، جعلت صدره يطلق نغمات متداخلة تشبه وشيش راديو قديم.

ترى زينب الأطفال يوقفون الحسن والحسين في الطريق، يحددون لأحدهما مسافة أمتار يقطعها جريًا، خاصة في أيام الشتاء، إذ كانت تيارات الهواء القوية الباردة تطيِّر شعره الفاحم، بينما كانت شعورهم المجعَّدة، تشبه ألياف جذوع النخل، لا تتحرك من مكانها حتى ولو هبَّت عاصفة.

كان الاثنان يستجيبان لهم، يتركان الدفء يسري فيهما، ويحصلان على متعة الزهو كاملة حينما يريان انبهار الأطفال. فكرت زينب - وهي تسمع حكايات جدة الحسن والحسين - في فوائد التشابه. كان أحدهما يحل بديلًا للآخر في المدرسة، وينوبان عن بعضهما في مرافقة الأصدقاء، ويقسِّمان حضور العزاءات بالتساوي، رغم أن الأب نصَّب الحسن مندوبًا عنه باعتباره الأكبر. الأب نفسه يخطئ في التفرقة بينهما، خاصة وأنهما يرتديان نفس الملابس، ويفضلان نفس الألوان، ونفس الأحذية، ويمشطان شعرهما بنفس الطريقة، ويبتسمان، ويضحكان، ويكشران، وينطقان، ويهمسان، بنفس الأداء، وحينما ينظران إلى بعضهما يبدوان كأنهما يتطلعان في مرآة. إنهما أكبر دليل

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

على أن الحياة قابلة للتكرار.

فكرت زينب أن حكاية توأمها كانت في احتياج لشيء جوهري حتى يُكتب لها النجاح، كما كُتب للحسن والحسين، فقد باتا أسطورة القرية، كأن يُولد غبارة طفلًا عاديًا. لم يكن مطلوبًا من الحياة أن تجعله جميلًا، لكنها ضنّت عليه حتى بالملامح العادية، وبخلاف قبحه كان مريضًا لا يقوى على اللعب، خوفًا من التراب، وبالتالي لم يكن باستطاعتها أن تقول لجاراتها إن في اختلافهما رحمة، بل فيه كثير من الألم والأسى.

كان الكبار والصغار يوقفون ابنها قطًا ويسألونه عن مغامرة أمس. تعلم بمرور الوقت الاسترسال، مضيفًا كثيرًا من التفاصيل غير الحقيقية على حكاياته. بدا لها أنه يكذب، وتمنّت - في كل يوم جديد - أن تكون الحكاية محض وهم تعيشه ويعيشه ابنها ويعيشه الجيران وتعيشه القطط، لكنها لا تجرؤ أبدًا على اقتحام غرفته ليلًا، ولا لمسه. لا تجرؤ حتى على إخراج مفتاح باب غرفته من صُرَّة تضعها إلى جوار قلبها، لكنها تسمح لنفسها فقط بأن تضع أذنها على بابه، كأنها قد تسمع صوت روحه في عودتها، لكنها لا تسمع شيئًا، ولا يكون أمامها إلا انتظار طرقعة فكّه حينما يتثاءب، أو صوت تقلبه في الفراش، لتدرك أن روحه عادت، وأن جسده عاد. تنتهي مناوبتها لتبدأ مناوبة الشمس. كان لقط أمَان. زينب والشمس. لكن زينب اعتبرت نفسها الأفضل، إذ إنها لا تتركه إلا وهي على يقين من حياته، بينما تتركه آكلةُ الأسنان المتسوِّسة، وحشُ البشرات الداكنة، صانعةُ الأنوف المفلطحة، لتلهو في مكان آخر، قد لا يحتاجها مثلما يحتاجها قط.

بحسب قط نفسه لم تكن الحكاية من قبيل اللهو. صدَّقته، وهو يحكي لها كيف أن جاراتها خُنَّ عهودهن معها، شيّعنه باللعنات والأحذية والطوب، لكنه لحسن الحظ اختار قطًا رشيقًا، سريعًا، يتسلق أعلى مكان في القرية، حتى إنه تسلق خزان الماء، رغم ارتفاعه الشاهق، ورغم جدرانه الزلقة.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com
في أعماق القط شعر برائحة مجد غابر. عظمة ممتزجة بكثير من الخوف. ثقة ضخمة مهتزة، ركام من مواء وغضب وفرح وألم. شمَّ كثيرًا من الروائح. طبقات لا يمكن فصلها بسهولة، لكنه مع هذا أدرك أن رائحة اليود أقواها. رأى تماثيل لأجداده، قططًا ينتزعون أمخاخها من أنوفها الصغيرة. رأى كهنة وأشخاصًا عاديين. رأى رجالا متشابهين لكنهم يرتدون ملابس مختلفة. رأى عششًا وبيوتًا من الطوب الأخضر، وعماراتٍ، وقصورًا. رأى نساء جميلات بائسات وحزينات. رأى أحذية كريهة، ثم تذوق طعم الجنس مع قطط عابرة. اختار الحلول في جسد قط أبيض، اختار لنفسه قطة ترافقه كل مساء، ثم اكتشف أنه قادر على تحدِّيها، رغم قوَّتها، إذ تفوقه حجمًا، والمعركة محسومة لها. بإمكانها دفعه عنها بيسر، لكن نظرته بدت لها كالمغناطيس وحوَّلتها إلى قطعة حديد خردة، فهرولت بالرغم منها تجاهه. كان قادرًا على تبديل نظرة المغناطيس إلى نظرة نمر لإخافة الإناث المتهافتات. سار بعظمة في الليل، وسمع أحدهم يصيح: «بِسّ» فتذكر أنه كان يومًا ما «باستيت». سار بعظمة على الدوام وسمع أحدهم يسخر منه صائحًا «مياو» فتذكر أنه كان يومًا ما «ماو». تشرَّبت روحه ذاكرة القط كإسفنجة، ومنحته متعة غير عادية، جعلته يفكر أن بإمكانه التحليق، لكنه كبح نفسه دائمًا في اللحظة الأخيرة، إذ يعلم أنه يمتلك ثماني أرواح، ولو سقط من علٍ، فقد يعود القط إلى أرواحه السبع، ويفقد هو روحه، أو تفقد روحه بوصلتها فلا تصبح باستطاعتها العودة إلى جسده، أو تفقد قدرتها على الحلول في أجساد القطط.

كان عليه أن يعود لزينب كل صباح، ليحكي لها. هذه الجارة نهرها زوجها أمس، صاح فيها وهو يعتليها: «ريحتك شبه القبر». جارة أخرى نهضت قرب الفجر جائعة فمدت يدها في عشة. أخرجت ثلاث بيضات صنعت منها قرصًا وأكلته. أيقظت الرائحة زوجها الجائع، وحينما أدرك أنها أكلت طعامه، وطعام صغاره، ضربها حتى نزف أنفها. جارة ثالثة كمنت خلف أجولة التبن فوق السطح، لتسمع تأوهات عروس جديدة. جارة رابعة حكت عن فتاة قتلوها بحجر. عن رجال اجتمعوا على كلمة

www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com
في وجه الموت كشجرة يابسة قوية الجذور في وجه العاصفة. فجأة نظرت إليه. رأى عينيها تبرقان، فانتفض، ثم رآها ترتفع عن الأرض كأنها تطير. رفع ظهره فبرز فيه ما يشبه سنامًا صغيرًا، وأطلق مواء غير مقنع ليخيفها، ثم تبيَّن عصا تطير باتجاهه، وترتطم به..

سمعته زينب يتأوَّه، فعرفت أن روحه عادت، وما بين قلق عاصف وفرحة خافتة، فتحت الباب. لم يقفز في حضنها - على غير العادة - فتحسَّست جبهته. لم تنقطع تأوهاته وإشاراته إلى ظهْره. قلبته على بطنه، ورفعت ملابسه. رأت خطًّا دمويًا غائرًا في ظهره، انتقل إلى قلبها وقسمه. امتزجت دموعها بجرحه. آلمته أكثر، فانتبهت، وقبل أن تفكِّر في تنظيف جرحه، وتلطيفه حملته إلى الشارع بيدٍ، وعصاها بالأخرى. سارت بتمهل. كانت تتوقف أمام كل باب ثانية أو اثنتين، متطلعة إلى وجه قط، منتظرة أن يحدد عدوَّهما. استمر في صمته الطفولي، حتى رفع إصبعه أخيرًا وأشار إلى بيت العجوز الحلبية. سيطر عليها شعور بالأسى والدهشة والقلق، لكنه لم يستطع تبريد حرارة غضبها. صممت على الثأر. طرقت الباب بالعصا، ففتحت المرأة - بعد كثير من الطرق - وكانت تتشمَّم الهواء، وتغضَّنت ملامحها، كأنها فهمت، وكأنها تنتظر مجيئهما، وزاد بياض عينيها، وبدت لهما أنها على وشك التحول إلى وحش ما. عادت أم قط خطوة أو اثنتين إلى الوراء. فكرت في البكاء فأسكت نشيجها الهواء، وفكرت في المواء، لكن رغبتها بدت لها غريبة، فقد يعبر أحد الجيران وهي تموء، فتتحول إلى امرأة مجنونة يلوك الناس سيرتها في حكاياتهم، وكانت هناك قطة تعبر في تلك اللحظة بالصدفة فألقت أم قط عصاها باتجاهها، وأصابتها في رأسها، فماءت، واختلط النشيج بالمواء.

maktabbah.blogspot.com
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com
في وجه الموت كشجرة يابسة قوية الجذور في وجه العاصفة. فجأة نظرت إليه. رأى عينيها تبرقان، فانتفض، ثم رآها ترتفع عن الأرض كأنها تطير. رفع ظهره فبرز فيه ما يشبه سنامًا صغيرًا، وأطلق مواء غير مقنع ليخيفها، ثم تبيَّن عصا تطير باتجاهه، وترتطم به..

سمعته زينب يتأوَّه، فعرفت أن روحه عادت، وما بين قلق عاصف وفرحة خافتة، فتحت الباب. لم يقفز في حضنها - على غير العادة - فتحسَّست جبهته. لم تنقطع تأوهاته وإشاراته إلى ظهره. قلبته على بطنه، ورفعت ملابسه. رأت خطًا دمويًا غائرًا في ظهره، انتقل إلى قلبها وقسمه. امتزجت دموعها بجرحه. آلمته أكثر، فانتبهت، وقبل أن تفكِّر في تنظيف جرحه، وتلطيفه حملته إلى الشارع بيدٍ، وعصاها بالأخرى. سارت بتمهل. كانت تتوقف أمام كل باب ثانية أو اثنتين، متطلعة إلى وجه قط، منتظرة أن يحدد عدوَّهما. استمر في صمته الطفولي، حتى رفع إصبعه أخيرًا وأشار إلى بيت العجوز الحلبية. سيطر عليها شعور بالأسى والدهشة والقلق، لكنه لم يستطع تبريد حرارة غضبها. صممت على الثأر. طرقت الباب بالعصا، ففتحت المرأة - بعد كثير من الطرق - وكانت تتشمَّم الهواء، وتغضَّنت ملامحها، كأنها فهمت، وكأنها تنتظر مجيئهما، وزاد بياض عينيها، وبدت لهما أنها على وشك التحول إلى وحش ما. عادت أم قط خطوة أو اثنتين إلى الوراء. فكرت في البكاء فأسكت نشيجها الهواء، وفكرت في المواء، لكن رغبتها بدت لها غريبة، فقد يعبر أحد الجيران وهي تموء، فتتحول إلى امرأة مجنونة يلوك الناس سيرتها في حكاياتهم، وكانت هناك قطة تعبر في تلك اللحظة بالصدفة فألقت أم قط عصاها باتجاهها، وأصابتها في رأسها، فماءت، واختلط النشيج بالمواء.

maktabbah.blogspot.com
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

حديث دافئ في المقبرة

سمعتُ نداء الدود فبكيتُ، لكن جدتي لم تبك. بل إنها - وسط رعشة الحمَّى - كانت تبتسم، إذ إنها صديقة الدود، وتعرف أن عليها أن تردَّ ديونها له. أحلم كل ليلة بالذباب يغافلنا، ويبيض في مسامها، وفي المقبرة ينهض الدود ليأكلها. لكم كان حانيًا معها، وهي الآن تمنحه جسدها برضا.

لامستْ جدتي الموت في مرضها كثيرًا، بل إننا تيقَّنا من موتها - ذات مرة - وغسَّلناها، لكنها نهضت، وهرولتْ عارية خلف النساء في غرفة التغسيل. اعتاد أبناؤها موتها، لكنها تعرف أن الدود يناديها هذه المرة بجدية. علَّمتني أن أستمع إلى ندائه، وألا أخاف منه. في طفولتي كانت تكوِّم الدود في جانب من طبق الجبن القديم، وتهوي بلقمتها عليه. كانت تحرك اللقمة في اتجاهات مختلفة أحيانًا لتلمَّ الشارد من الدود، ثم تمد يدها اليابسة المكوَّنة من عروق خضراء وعظام - يدها الشبيهة بيد الموتى - إلى فمها، لتمضغ لقمتها بتأنٍّ. ارتجفتُ أول مرة بهلع، لكنَّ تلك الرجفة صارت علامة على تلذذي بمضغ الجثث البيضاء السمينة، فلا شيء أجمل من إخراس بطن. هكذا علمتني، وعلمت إخوتي، تاركة لنا حرية الاختيار، بين أن ننهض جوعى، وبين أن نكمل وجباتنا بكامل دسمها، ثم صارت الرجفة علامة على التلذذ ببلع الذباب، والعلكة، ونوى البلح، والمشمش، والبرقوق، والخوخ، والنبق، وبذور البطيخ، والعنب، والتفاح، وكل ما يمكنه المرور في حلوقنا دون أن يخدشها، أو كل ما يمكنه المرور في حلوقنا ويخدشها لكن لا يدميها.

بدا لي جدي مشغولًا بانتزاع الضحك من أحفاده. لا ليشعر بالزهو، وإنما ليغطِّي على صوت سعالها. لم أتركه في حاله. شددته من ذراعه

www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

ليأتي معي حيث ترقد. طلب الصبر حتى ينتهي من حكايته. لكن - ليتخلص مني - سمح لي أخيرًا بالتغيُّب عن المدرسة وإحضار الطبيب لها. شعرت بالضيق قليلًا، إذ تذكرت أن غيابي سيحرمني من متعة حصة الزراعة الأسبوعية، حيث يطلب منا المعلم أن نحضر له الطعم. كنا نغرس أظافرنا في الأرض بسرعة، ونشد الدود ونكوّمه في حفرة، ثم نمنحه - بحماسة المظفَّرين - للمدرس، ليستخدمه في الصيد.

جدي لم يعرف أن الساحرة موجودة في القرية، وإلا ما طلب مني إحضار الطبيب. لم يحدث أن التقيا منذ شهور بعيدة. حرصَا دومًا على ألا يصطدما، إذ إن الطبيب سيوبِّخها، وربما يبلغ عنها نقطة الشرطة، منفذًا تهديده في آخر لقاء جمعهما. تأتي الساحرة مرة كل شهر لتنظف أجسادنا من الدود، بينما نذهب إليه في الوحدة الصحية على أطراف القرية، لينظِّف دمامِلنا، أو نستدعيه إلى بيوتنا إذا كان الأمر طارئًا. كسر، أو حمًّى، أو إن كان مريضنا لا يستطيع الحركة لأي سبب، مثل جدتي.

وصلتُ إلى الوحدة الصحية. اضطررت للوقوف أكثر من ساعة حتى ينتهي الطبيب من طابور المرضى. تحركنا أخيرًا، لكننا توقفنا في الطريق ليكشف على مرضى آخرين، مصابين بخراريج، وبثور متقيِّحة، كانوا يتجهون إليه. يسند المريض إلى حائط، أو جذع شجرة. يفتح حقيبته، ويخرج منها مشرطًا. يُشعل لهب قداحته ويمرره عليه، ثم يفتح الخرَّاج. يكوي الجرح، ويهيل عليه السلفا والميكركروم والقطن، ويلفّه بشاش نظيف. قابلنا شخصًا لدغه ثعبان، فطلب منه الذهاب إلى المستشفى الميري في المركز، وآخر عضه كلب، فأمره بأن يكمل الطريق إلى الوحدة الصحية وينتظره هناك.

وصلنا إلى الدرب حيث نسكن. كانت الشمس قد تحررت من بضع سحابات. وجدتها الأمهات فرصة لتنقية مؤخرات أبنائهن من الدود. كان ما لا يقل عن عشر أمهات يجلسن أمام بيوتهن، كل واحدة تمسك طفلها بالمقلوب، بحيث تلامس رأسه الأرض وتصبح مؤخرته في

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
مواجهة الإضاءة الشديدة، بشكل يمنح الأمهات قدرة مضاعفة على الرؤية. لم يحتجن إلى المرايا الصغيرة، وتركنها ملقاة على الأرض. تنظر الواحدة منهن إلى الداخل وتراقب حركة الدودة، وحينما تبصرها تمد السبابة والإبهام وتلتقطها ببراعة، وتريها لطفلها فينهض فرحًا. يجري إلى أقرانه، كأنه سمكة أعيدت إلى بحر. راقبت تعبيرات الطبيب النحيف الأبيض، وهو يراقب بدوره الأمهات، ومؤخرات الأطفال المقلوبة، وصياحهم بمتعة بعد تحررهم من الدود. رأيت ابتسامة تومض في وجهه، ثم مال على أذني وهمس لي أنه يريد «برشامة بطن!».

انتظرني في منتصف الشارع، وأنا أهرول إلى البقال وأحضرها له. فكرت بدهشة إن كانت حقيبته تعاني من نقص في الأدوية؟ وحاولت تخمين لمن سيمنح هذا القرص؟ لكنني فوجئت به يمد يده ممسكًا بكوب من الألمونيوم فوق زيرٍ قريب، نصفه السفلي مغطًى بالطحالب الصغيرة. ملأه عن آخره، وابتلع القرص. في هذه اللحظة انتبهتُ إلى أنه يعاني. صحيح أنه طبيب لكنه يأكل طعامنا، ويشرب ماءنا، وحتى إن أحضر معه من مدينته البعيدة مؤونة من الأطعمة، فلن تكفيه، إذ يمضي في القرية أكثر من شهر، ويحصل على إجازة لمدة أسبوع واحد.

سلّيت نفسي قليلًا بتخيل اللقاء بين الطبيب والساحرة. كان الطبيب أول حقيقة أعرفها كطفل، وأسوأ حقيقة، وأكثرها قسوة. ارتبط ظهوره دومًا بألم حقن الفيتامينات الحمراء الرفيعة وكيِّ الجروح وحشر لبوس الإمساك في مؤخرتي، لكنني لفترة طويلة لم أتخيل أن هناك وجودًا للساحرات إلا في أفلام الكارتون. حينما أخبروني - لأول مرة - بأنها قادمة تخيلت أنها ستهبط من السماء على ظهر مقشة، لكنني وجدتها امرأة سمينة، جهازها الهضمي يتدلى أمامها، تسير قريبًا من الأرض، وتعذِّبُ الجاذبية رأسها وتبقيه قريبًا من التراب، كأنها من الزواحف. رأيتها تمد يديها أحيانًا لتعدل وضع بطنها، أو تهزه حين

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
تشعر بأن الأمعاء مالت في ناحية فصارت أثقل من الأخرى. اسمها «سيدة» وهو اسم غريب بالنسبة لي، ولا أدري لماذا يختاره أب لابنته، إذ إنه أشبه بأن تطلق على ابنتك مثلًا اسم «طفلة» أو «امرأة» أو على ابنك اسم «طفل» أو «صبي» أو «رجل». أخبرتني جدتي أن الأب لم يختر لها هذا الاسم لكي تشعر طوال حياتها بأنها سيِّدة الناس وملكتهم، بل لأنه سيكون أقل إخجالًا - حين ينادونها به - من أسماء أخرى، خاصة إذا صارت عانسًا، ويبدو أنه توقع أنها لن تتزوج وبالتالي لن تصبح أمًا، ولن يناديها أحد باسم أكبر أبنائها. سألتُ جدتي إن كانوا سينادوننا يوم القيامة بأسماء أمهاتنا فلماذا يشعر أبوها بالخجل من اسمها؟!

كان لقاء الطبيب والساحرة مثيرًا بالنسبة لي. انتفض الطبيب حين رآها. قال لجدي إنه نبَّه أكثر من مرة ألا تأتي إلى القرية مجددًا. اعتذر له جدي، وطلب منه أن يتحمل الأمر لـ«أجل خاطر النبي»، وفي لقطة مدهشة تقدمت الساحرة من الطبيب، فارتبك، ورفع يديه كأنه يحمي وجهه من خطر ما. ضحكت فأشار إليها دون أن يتحدث طالبًا منها أن تعود إلى حيث كانت تقف. ألحَّت عليه ليمنحها الفرصة، ولسبب ما قرر تركها. ظل ساكنًا فوق الدكة. قرَّبت يدها من أذنه اليمنى، دون أن تنطق، لكنها حرصت أولًا على أن تريها له خالية، وبعد قليل بدأ شيء يتحرك في أذنه. شعر بالفزع، وأدار عينيه باتجاه أذنه، لكنه لم يلمح سوى راحة الساحرة المفرودة، ثم فجأة انتبه إلى سرب دود يسير في طابور فوقها ويستقر في منتصفها. نهض، وبدأ في نفض أذنه بحركة هيستيرية، حتى تأكد من خلوها. لم تتوقف الساحرة لتحصل منه على نظرة اعتراف، إذ تدرك أن الغضب أقوى من الرضا بداخله. ربطت صرَّتها، وغادرت إلى إحدى خالاتي في بيت مجاور، بينما ظل الطبيب يحدق بفزع في بطَّة رمادية تلعق كومة الدود على الأرض.

أبعد وجهه إلى الناحية الأخرى، حيث تجلس خالتي، وأمامها قصعة فخار. قلبتْها بحيث أصبحت قاعدتها المتفحمة مسرحًا لعملياتها. سندت

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

ابنها على حجرها مقلوبًا بدوره كالقصعة، بحيث يدفن وجهه بين قدميها، بينما تمشِّط رأسه بفلاية أحيانًا، وبيدها أحيانًا، وكان القمل ينزل فرادى وأفواجًا، فوق القاعدة المتفحِّمة، فتلاحقه بظفر إبهامها. كان صوت قصف القمل مسموعًا، ومع كل انفجار كانت خالتي تصيح برقم القتيلة الجديدة. طالعنا بقعًا حمراء داكنة تناثرت على القاعدة السوداء مع صياحها بالرقم 142. لم تهز كل تلك المشاهد الطبيب، أو ربما هزته ولكنه احتفظ بتماسكه، لكن ما هزم ذلك التماسك الظاهري - على ما يبدو - هو كوب شاي أحضرته له خالة أخرى، إذ ظهر طيف تعبير ممتعض على وجهه، لكنه زال فورًا، ثم سأل كمن يريد إنهاء معاناته: «هي فين المريضة؟!».

اقترب منه جدي ووضع في يده بطاقة جدتي الورقية، وهو يشير إلى صورتها. قال الطبيب إنه ليس في حاجة إلى بطاقتها، فأخبره جدي بأن عليه أن يكشف عليها «هنا!». ضحك الطبيب، لكنه ضحك مغلف بقشرة من الغضب جاهد لإخفائها.

نظرتُ من فرجات باب مصنوع من صفِّ ألواحٍ خشبية غير منتظمة، إلى جدتي، مستمعًا إلى صوت أنينها. خُيل لي أنها غارقة في عرقها، وخشيت أن تذوب الوشوم الخضراء القديمة في جبهتها وذقنها. انتبهت إلى الطبيب وهو يحاول عبثًا إفهام جدي أن الأمر مستحيل، وأنها في عمر جدته أو أكبر، وعليه ألا يقلق، وأنه طبيب يحترم مهنته. بدا حانقًا وهو يذكِّره بأنه كشف عليها سابقًا في الوحدة الصحية، وكادت هذه المعلومة أن تتسبب في قتل جدتي - قبل أوانها القريب جدًا - لولا أن فهم الطبيب خطأه، خاصة مع اتساع حدقتي جدي بغضب، وقال بسرعة إن الأمور اختلطت عليه، لكن الشك كان ينفخ عمامة جدي البيضاء الضخمة.

استسلم الطبيب على ما يبدو أخيرًا، إذ وضع طرف السماعة في أذنيه، والطرف الآخر على صورة جدتي في البطاقة. بدا كأنه يستمع إلى صوت تنفسها، بل إنه أشار إلينا لنصمت، كأننا نشوِّش عليه، ثم قلب

www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

البطاقة كأنه يقلب جدتي ليستمع إلى تنفسها من ظهرها. أعجب الأمر جدي، وشعر أن الطبيب يقوم بواجبه على أكمل وجه. رأيت في عينيه نظرة رضا، لدرجة أنه بدأ يرد بشكل عادي على أسئلة الطبيب. تحدث بالتفصيل عن حالة جدتي، وراقب الطبيب وهو يكتب الدواء في ورقة متسخة تناولها من الأرض، طالبًا أن نحضره بأقصى سرعة من المركز، وقائلًا: «مفيش حقن»، ورد عليه: «الله يرضى عليك يا أخي».

لم نجد سيارات في هذا التوقيت المتأخر. اضطررنا للانتظار حتى الصباح. جلستُ مع جدي وخالاتي وأخوالي في المنطقة التي تصل إليها الشمس الضعيفة في قلب البيت. طلب مني جدي أن أتحرك، فقد لاحظ أن جسدي مقسوم بين الظل والشمس فتحركت. حكى لنا وهو يضحك كطفل عن الناس في قرى مجاورة. إنهم مقززون بشكل لا يُحتمل. في آخر زيارة له إلى هناك كان يجلس مع صديق وأبنائه، فدخل عليهم أحد الأعمام عائدًا من حقلهم القريب، وهو يربط ثلاثة فئران بيضاء، بالخوص الأخضر اللدن، ممسكًا الحزمة من طرف أنشوطة ليف متصلة بربطة الخوص. هلل الأطفال للعم ولصيده الثمين. كنا نفكر: يا لهم من مقرفين. لا يمكن أن يقبل عقل هذا، حتى لو كان صاحبه سيموت جوعًا. كنا نضحك من قلوبنا فيختلط ضحكنا بأنين جدتي، بينما لاحظت أن جدي كلما تمخَّط وبصق تقفز بطة وتلقف مخاطه الأخضر في الهواء.

جاءت الأدوية، وتحسَّنت جدتي، لكنها لم تتحسن سوى لأسبوع واحد، ذبحت لنا خلاله أضخم بطَّاتها، ثم ماتت. شعرنا بالحزن، ورأينا كم كانت محبوبة، فقد كان قطار النساء الأسود طويلًا، لا يحيط به البصر، خاصة مع تموُّجه من درب إلى درب، ومن شارع إلى شارع. غسَّلوا جدتي، وألبسوها كفنها الأبيض الدمُّور النظيف. شممتُ منها رائحة جميلة، ربما رائحة صابون «كاميليا» مختلطًا برائحة سعف النخيل القوية. وضعوها في النعش المتهالك. كانت في خفة ريشة حملتْها عشرات السواعد القوية لدرجة أنني خفت أن تطير، ثم ألقوها في

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

سيارة نصف نقل. قفز كثيرون معها، وسبقتنا سيارتها إلى مدافن العائلة في القرية الأخرى.

ظلت موجة الغبار تحجب الوجوه في الجبل، حتى توقفت السيارات، وهدأت حركة الأقدام، وكان هذا جيدًا فقد أنهى وابل سباب انهال من الكبار تجاه الصغار، وأوامر متلاحقة باحترام الموتى أسفلنا، وعدم السير بالأحذية على قبورهم. لم أفكر في الأموات وقتها، أو فكرت أنهم مجرد تذكارات لمملكة الدود أسفلنا، ولمحت الطبيب يقف في صف الرجال، عاقدًا يديه أمامه، ولمحني. غمز لي بعين، وكنت على وشك أن أرد بغمزة لكن الشمس تحركت وأعمتني، وحينما استرددتُ بصري تعالت الصيحات، والأيدي من داخل القبر، تلقف جدتي. كانت لقمة ناشفة أعلم أن الدود لن يسعد بها كثيرًا، لكنها على أية حال أمانة لا بد من ردها إليه، إلى إخوتنا في الرباط والأرض.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
مكتبة بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

العقرب

سحابة قريبة ومطر أصفر

استيقظت مبتلًا، وكانت رائحة السرير لا تطاق كالعادة. البول في كل مكان. تسرَّب من بنطلوني إلى الملاءة، منتشرًا في دائرة غير منتظمة في لحم المرتبة الإسفنجية، ووصل إلى الخشب، وترك بقعة صغيرة على البلاط. نهضتُ ثقيلًا كأنني أحمل جبلًا، وشعرت برغبة حارقة في البكاء، لأحرر قلبي من ثقلها، إذ تقول جدتي لي دومًا إن: الدموع موطنها القلب.

تصرفت بسرعة. كان يجب أن أتصرف بسرعة، إذ سيأتي أبي في حملة التفتيش اليومية ليرى إن كنت قد سمعت أوامره بعدم التبول على فراشي، كأن ذلك في استطاعتي، ثم يتفنن في عقابي كالعادة، وأسوأ أنواع العقاب أن ينادي على جيراننا، ليريهم هذا الرجل الذي بدأ شاربه في الظهور يفعلها على نفسه. ولكي أطمئن نفسي قليلًا مددتُ يدي إلى خصر أخي في الدور العلوي من السرير الحديدي ذي الطابقين. وجدته يابسًا، ومع هذا لم أيأس. مررتُ أصابعي أسفل بطنه فسقطت يدي في بحيرة. هززته، فنهض مفزوعًا، وقفز من السرير.

كانت لدينا خبرة - بعد سنوات من الاستيقاظ مبتلَين - في التحرك السريع. أحدنا يوقظ الآخر، وأحدنا لا يشمت في شريكه إن استيقظ ناشفًا. الشماتة ممنوعة حتى في فترات الحرب. هذه من المواثيق الغليظة، لا يمكن قطعها أو جرحها لأي سبب كان.

ننزع ملاءته. نكوِّمها على الأرض مع ملاءتي، ثم نقلب مرتبته، لكن المشكلة أن الله منح لأخي مثانة ضخمة، أكبر - ربما - من قِرْبة، يمكنها استيعاب دلو ماء ضخم، وبالتالي حينما نقلب مرتبته تصبح سماء ملبدة بغيوم صفراء لسريري، فتمطر. تبدأ خفيفة قبل أن تهطل. فطنت

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

بمرور الوقت أنه لهذا السبب عليَّ نزع مرتبتي، حتى تكف مرتبته عن الإمطار.

استخدمنا أوراق الجرائد القديمة كسدٍّ يوضع بين المرتبة ومُلل السرير. كانت حيلة تصلح أحيانًا، وتفشل أحيانًا أخرى، فأبي يطيب له أن يمسك بكومة الشهر من جريدته اليومية، ويبدأ في عدِّها، ولو اكتشف نقصًا بها، يحاصرنا بأسئلته المتوعدة، ونظراته المتشككة، وغضبه الهادر، قبل إصداره حكمًا باتًا - في الأغلب - بأن يضربنا بحزامه.

ثم تأتي أصعب خطوة إذ يتسحب أحدنا إلى غرفة أبي وأمي. لو كانت أمي بمفردها سيمر الأمر بشكل سريع. نقوم بهذه العملية في الفجر غالبًا، وهذا يعني أنه لن يكون قد استيقظ بعد، أو على وشك الاستيقاظ، ليدخل في زيِّ العمل. لحسن الحظ - في هذا اليوم – كانت أسنانه العلوية في معركة شرسة مع السفلية. كان في عالم وأسنانه في عالم. دخلتُ على أطراف أقدامي الحافية ولسعة الثلج تسري منها إلى مخي. فتحت الدولاب بحذر، وأنا أعلم أنه سيُصدر صوتًا، لكن على أمل أن يكون الدولاب طيبًا ويخفف من حدته. سحبت ملاءتين وملابس لنا. عدتُ بها مسرعًا. فرشنا الملاءتين على السريرين، وانتحيت في جانب وانتحى في جانب. حرصنا على ألا نتبادل النظر، ونحن نتعرَّى بسرعة وخبرة، ونبدل ملابسنا. كان جسدي منتشيًا بدفء الملابس الناشفة، لكني لم أتخلص من رائحة البول بالكامل، ففي هذا البرد لا يمكنني تحمُّل الاستحمام بمياه باردة، ولو شغلتُ الوابور لأيقظ بيتنا وسكانه وحيواناته وزواحفه وحشراته. اقتربت من أخي وتشممته. بدت لي رائحته مثل رائحة خنازير قرية «القصر» لكنني جاملته بهزة رأس.

صرنا في أمان نسبي، لكن كان علينا أن ندعو الله كثيرًا، حتى تمر حملة التفتيش سريعة، إذ كان أبي يعرف أحيانًا بخدعتنا، ويوقظنا. يقلب المراتب، ويبدأ وصلة تعذيب لا تنتهي إلا حينما يشعر بأنه تأخر قليلًا على موعد الدوام في مصنع السُّكَّر.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

أغلقت اللمبة الصفراء. طلبت من أخي أن يعود إلى فراشه، فتسلَق السلم الحديدي. بعد قليل سمعت صوت تنفسه، ثم انقطعت صلتي كذلك بالعالم، حتى شعرت بيد تهزني. رأيت وجه أبي المبتسم في ضوء يجاهد للنفاذ من شيش الشبّاك، ولوهلة حاولت أن أفهم مغزى هذه الابتسامة، ومن حركة أخي فوقي فهمتُ أن أبي أيقظه أولًا، ثم انتبهت إلى أنني مبتل. حركت يدي بهدوء حتى لا يلحظها ولمستُ بنطلوني ووجدته غارقًا. وكانت هذه من المرات النادرة التي أتبول فيها لا إراديًا مرتين في ليلة واحدة.

فكرت أن حركة أخي تنم عن ثقة، أي أنه ناشف، وكالعادة لم أستطع منع نفسي من الشعور بالغيرة في هذه اللحظة، كما شعرت بالغيرة تأكلني يوميًا لمدة نصف عام توقف فيها عن الاستيقاظ مبتلًا، لدرجة أن أبي كان يقدمه لأصدقائه وأقربائه على أنه صار رجلًا، بينما يرمقني بنظرة غاضبة وهو يشير لي: «ربنا يسهل للكبير!»، لكن أخي - لحسن الحظ - انتكس بعد صمود طويل، وعادت مثانته لتمطرنا بخيرها الوفير.

ماذا يريد أبي؟! كانت لديه دقائق يستطيع فيها أن يقوم بعرضه الصغير المحبب، عرض العقارب. يقف مثل فارس مظفر، وهو يخبئ ما يعتقد أنه مفاجأة خلف ظهره، لكني أعرف، وأمي تعرف، والغرفة تعرف، والبيت كله يعرف، وحتى العقارب تعرف، أنه اصطاد عقربًا جديدًا، وأنه يمسك بشوكة نخلة وقد غرسها في ثلاثة عقارب. يعتمد العرض على أن تهز العقارب أذنابها، ويقرّب أبي سبابته من ذنب أحدها، فيرفعه في الهواء بسرعة استعدادًا للانقضاض عليها، فيبعدها فورًا وتطيش الضربة، فيضحك، ونضحك..

لكنه فجأة تشمم الهواء، وانقلبت ملامحه، وسأل: «حد فيكم عملها؟!» لكنني نفيت بهزة من رأسي، وأنا على وشك البكاء، ويبدو أن صياح أخي الصادق في هذه اللحظة هو ما أنقذنا، إذ انفجر صوته في الغرفة: «لا.. الحمد لله». نظر أبي في ساعته ذات الميناء الأبيض، وغادر

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
لحسن الحظ، مصطحبًا عقاربه، ليهرسها، ويلقيها غالبًا في مصرف يصحبه في رحلته من القرية إلى المركز.

يصبح الأمر أكثر قسوة في ليالي الشتاء، إذ نضيف بطانية سمراء أو اثنتين إلى قائمة ضحايا التدفق اللاإرادي. كنا بعد حفلة التعذيب، ننشرها على جذوع نخلة مدوها كجسر بين الدور العلوي، وسطح غرفة كراكيب نفرط عليه الذرة، ونخزِّن فيه أغصان السمسم ذات الورود البيضاء، فتمتصّ الشمس الضعيفة نضارتها ببطء وتلذذ، كما تمتصُّ معها ماء البلح الأخضر حتى يصبح علفًا يابسًا.

قبل مجيء أخي إلى الدنيا بعامين، كان أبي يحملني إلى بيت جدي لأمي. يوشوشني طوال الطريق. يقول لي إنه على استعداد لتقبيل يديَّ وقدميَّ وحذائي إن أمسكت مثانتي، ويضحك، فأضحك ببراءة، لكنه يعلم أنني أكون متماسكًا في الذهاب، ولكن في الإياب تصبح الأمور صعبة، إذ إننا نتحرك في الثامنة مساء، وهو وقت متأخر للغاية، وغالبًا أكون قد سقطت في النوم قبلها بساعة، فيوقظني، ويصيح في وجهي أن أنتبه، وبعد بضعة أمتار، تتملكني متعة غير عادية، رغم أنني أغط في نوم ثقيل، والبول يتدفق من بحيرة صغيرة في جسدي، إلى أن يشعر به أبي - بفزع وغضب - يُغرق شعر صدره، ويتسرب بسرعة إلى بطنه، فيلكزني في جنبي، طالبًا مني إيقاف الهجمة، فأنتبه وأوقفها فعلًا، وطوال الطريق لا يكف عن سبي وسب أمي التي أنجبت طفلًا معطوبًا.

حاول جدي لأمي إفهامه في كثير من لقاءاتهما أن معاملتي بعنف وقسوة ستأتي بنتيجة عكسية، ويرد عليه أبي - الذي يبدو أنه ترجم كلام جدي بشكل خاطئ - بأنه يفكر في علاجي كيًا بالنار، إذ إن زميله في المصنع جرَّبها في ابنه وأفلحت. أفلحت كأنه ركَّب له جلدة «حنفية». قال ببساطة لجدي - أمامي - إنني سأتألم قليلًا، لكن الأمور ستمر بسلام في النهاية، ونكسب رجلًا. ارتعش جسدي، وأنا أتخيله يمسك سيخًا من نصفه الأسود ليكويني بنصفه الملتهب، لكن جدي

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

المتحمس أخرج زجاجة بيرة من كيس وسكب نصفها في كوب بلاستيك أزرق، وقال له إن البيرة تطهر الكلى، وستأتي بمفعول سحري معي، وأبي بقليل من الضغط كبح غضبه، ومسح دهشته، ولم يعد يفكر في غرابة الموقف، ووافق، وأنا مثل فأر التجارب أمسكت بالكوب وتجرعته، لكنني لم أتحمل أكثر من عشر دقائق ثم انهار صمام مثانتي تحت ضغط شلال البيرة. كان رشاشي قويًا هذه المرة، لدرجة أن البول بدا مثل نهر صغير تدفق تجاه جدي، ولم ينتبه إلا حين لمس قدمه، فأبعدها بفزع ودهشة بالغة، ثم نادى على جدتي لتلبسني ملابس ناشفة من دولاب خال يكبرني بعامين. نظر أبي إلى جدي كأنه يسأله ما رأيك الآن؟ ألا يستحق الأمر التجربة.. أن نكوي هذا الصغير بالنار؟

لكن أبي في هذه الليلة - وهو يحملني عائدًا بي - أيقظني أمام باب بيتنا، لأعرف للمرة الأولى بهوايته في صيد العقارب. فهمت بينما ينزلني إلى الأرض أنه كان يحتفظ في جيبه بحزمة من شوك النخل الحاد، ملفوفًا في ورقة جريدة، حتى يحمي لحم فخذه وكذلك بنطلونه من التمزق. يستل واحدة منها، ويغرسها في شِقٍ، ثم يخرجها، ويكرر الأمر في أكثر من شِقٍ حتى تخرج -مرة- بصيده الثمين، يقرِّب الشوكة من الأرض وبطرف حذائه يضغط على العقرب حتى يحرره، لكنه قبل أن يسرح بعيدًا يعاجله بضوء الكشاف. يحبس العقرب في دائرة ضخمة من الضوء، إذ إن الظلام حول الدائرة يبدو كالجدار المصمت. ينظر إلى وجهي فيراني أضحك بمتعة، بينما أمسك بطرف ملابسه خوفًا من شيء ما، كأن يتضخم العقرب فجأة ويلتهمني رغمًا عنه. يبادلني الضحك، ثم يطلب مني أن أعد عكسيًا من ثلاثة إلى واحد، وفي هذه اللحظة بالذات يهوي بحذائه على العقرب ويهرسه. أصفق، ويحملني. يقبلني في خدي، فأحتضنه، وأشعر بطمأنينة.

كان أبي مكونًا من عنصرين، لكن نسبة إحداهما تطغى على الأخرى بحسب الموقف والحالة. الغضب والرحمة. وبإمكان الرحمة كما أعرف - الآن - أن تمحو الغضب. لا.. ليس الغضب وحده، وإنما كل آثار السوء،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

من ذواتنا. كان جاذًا كذلك، وبإمكان الجدية أن تنظِّم حياتنا، لكننا نحتاجها بقدر، وإلا ستحوِّلنا إلى قضبان تنتظر عبور القطارات الغريبة فوقها، وماذا تكسب تلك القضبان في النهاية لو اعترفنا لها بالقدرة على التحمل؟!

أبي مثل كثيرين أفنوا حيواتهم في تنفيذ الأوامر، ليس أوامر رؤسائه في المصنع فحسب، ولكن أوامر كبار العائلة. وجد متعته في تلبية رغبات الأصدقاء والجيران، في تحديد خطوط لحياته، خطوط حوَّلت أيامه إلى نسخ باهتة. السبت يشبه السبت، الأحد هو الأحد. يمر أسبوع خلف أسبوع، شهر بعد شهر، عام بعد عام، ونحن لا نشعر بأي تغيُّر يطرأ على ملامحنا، رغم أن الوجه لم يعد نفس الوجه، ورغم أن الجسد صار جسدًا يخص شخصًا آخر. المرآة تخدعنا، لكننا لا نهتم بصياحها، بقدر اهتمامنا بما تثيره فينا من حنين إلى الوجوه النضرة السعيدة والملابس الزاهية ولحظات الفرح.

تخيل أبي في العشرين أنه رجل، والرجل ينفذ الأوامر دون أن يسأل ما الفائدة؟ وفي الثلاثين صار يجد متعة في تنفيذ الأوامر، وفي الأربعين صار بإمكانه إصدار الأوامر، وفي الخمسين انتبه إلى شيء غريب، صحيح أنه يصدر الأوامر منذ سنوات إلا أنه لا يزال يتلقاها، وحين وصل إلى الستين صار يحكي بمتعة عن إتقانه للعمل أكثر من رؤسائه، لكنهم حصلوا على مناصبهم الكبيرة بسبب شهاداتهم الجامعية أما دبلومه فلم يشفع له. يطيب له أن يذكِّرنا بأنه حصل على الاحترام، لكنه بدا لي دومًا كأنه يذكِّر نفسه بذلك، أو يقنعها. عاش حياته بحساب. الملابس بحساب، النظافة بحساب، الغضب بحساب، التسامح بحساب، الخطو بحساب، لكنه فشل في ذكر لحظة واحدة استمتع فيها بالخروج عن الأوامر، أو موعد الدوام، سوى لحظات اصطياد العقارب، أو حين يحاول مضايقة أمي بحكاية - لا نعرف إن كانت حقيقية أم لا - عن امرأة عرفها أثناء سفره للقاهرة يومًا ما.

كانت سراويلنا الصغيرة تتعفَّن في كومة الغسيل أحيانًا، إذ تغسل أمي

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

مرة في الأسبوع، وفي فترات الإجازة اضطررتُ لارتداء البنطلون على اللحم، والتضحية باللعب في الشارع. اعترف لي أخي أنه يفعل مثلي أحيانًا، لكن في فترات المدرسة ارتديتُ مرة أو اثنتين سروالًا متسخًا جافًا، ثم بدأ زملائي في الفصل يسألون عن مصدر الرائحة النتنة. حاولت أن أشغلهم باختراع لعبة جديدة. خرجت مسرعًا في الفسحة إلى الفناء، وقطعت صبَّارة، هددتهم بها. هرولوا في كل مكان، خوفًا من الأشواك المدببة. ثم حين بدأت الحصة، وضعتُهم تحت ضغط، إذ اقتنعوا أنني قد أخرِج الصبَّارة - رغم وجود المعلمة - لأغرز أشواكها في أجسادهم. كان ارتداء السروال المتسخ تجربة مفزعة، قررت عدم تكرارها مهما حدث.

حين كبرت قليلًا عودت نفسي على غسل ملابسي الداخلية، وجواربي. كان أبي يهز رأسه بعدم تصديق وهو يشاهدني. سألني ليختبر ذكائي مرة - بينما يحل الكلمات المتقاطعة - قارئًا عبارة من الجريدة: «ينتمي إلى طائفة العنكبوتيات، ويعيش في المناطق الحارة والجافَة. أربعة حروف» وقلت بدون تفكير: «حيوان»، فقال بغضب: «أهو انت اللي حيوان!»، وبعد حيرة كبيرة أدركت أن حيوان خمسة حروف، وأنني أضعت عليه وعليّ فرصة استعادة ذكرى محببة إلى نفسه، وهي اصطياد «عقرب»، ذكرى تربطنا سويًا، وتشكل لحظات السعادة الوحيدة في علاقتنا.

كان الأمر يبدأ بحلم، وعودت نفسي على محاولة الاستيقاظ في لحظة مناسبة، لكنني فشلت كثيرًا، فشلت بلا مبالغة لسنوات. كنت أحلم بأنني أسير في شوارع باردة، أو أشرب كثيرًا، أشرب من زير، وأحيانًا أزحف كحيوان لأشرب من بِرْكة، أو من زجاجة كوكاكولا، أو فانتا، أو شويبس، أتجرَعها دفعة واحدة، ثم تنتفخ مثانتي كبالون، وأتدفق، مستمتعًا إلى أقصى درجة في الحلم. أرش الحوائط، صانعًا دوائر وأشكالًا هندسية، لكن الماء كان يتسرب من الحلم إلى الواقع، عبر ماسورة قصيرة تربط العالمين، مغرقًا السرير، يومًا بعد يوم، أسبوعًا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

بعد أسبوع، وشهرًا بعد شهر.

اعتاد أبي بمرور الوقت ألا يقتحم غرفتنا ليقيم عروضه، سواء كان بمفرده أو بصحبة بعض أقاربنا، إذ إن رائحة الغرفة صارت أكثر سماكة من رائحة الجديان.

كبر أبي، وكبرت، وكبر أخي، وشاخ العالم، ومع هذا ظللت مرعوبًا على الدوام من فكرة السفر، ومن فكرة المبيت خارج البيت. ظننت أنني سأستمر في التبول اللاإرادي إلى ما لا نهاية، وكاد الأمر أن يتحول إلى حقيقة. في الليلة الأولى لزواجي - ورغم مرور فترة طويلة توقفت فيها عن التدفق - تدفقت، وأغرقت السرير. نهضت عروسي مذعورة، بعد أن طالتها مياه النهر.

خلعتُ ملابسي كلها في البانيو وأغرقتها بالمياه. عدت لأجد زوجتي قد قلبت المرتبة، لكنها تعاملت معي بحنوٍّ، واحتاجت سنوات لتنسى هذا الموقف، ولأنسى بدوري خوفي من المبيت خارج البيت، ثم جاء أبي إلينا مصابًا بسرطان الكبد. لم يحتج إلا إلى شهور لتتداعى أعضاؤه، كما يتداعى بيت رملي على شاطئ بضربة قدم مفاجئة. كانت تساعدني في حمله إلى الحمام. تتركه لي. أسنده بالكاد، وأخلع عنه ملابسه المبتلة. أطهره بالقطن والماء الدافئ المخلوط بقليل من ماء الورد. أحكي له عن رجل وطفل كانا بالأمس القريب يلهوان بالعقارب، ويصارعان الأشباح، رجل لم يعد به ولو مجرد مسٍّ من الغضب، وإنما كتلة رخوة من الرحمة لا معنى لها بدون شوائب، بينما تتسلل زوجتي إلى سريره لتقلب مرتبته.

maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

الديك

خمسة ذقون ناعمة

لأكثر من عشرين عامًا حلمَ بنجمة، مجرد نجمة، لكن ظلَ الشريطان الكاكي - على كتفيه - خاليين على الدوام، كأنَّ رتبته هي حياته الممسوحة من ذكريات مهمة. حتى حكاياته لابنه لم يجعل نفسه بطلًا لها، ولم ينتبه أبدًا إلى أن حياده حوَّله - بمرور الوقت - إلى سارد حكايات عن أبطالٍ آخرين. يكتفي بمسامرتهم أو إضحاكهم، ويكتفون هم بالتعليمات المقتضبة السريعة الآلية.

كان صادقًا لدرجة أنه بخل على نفسه بقليل من الكذب، بقليل من الادِّعاء، أو فلنقل بقليل من المبالغة. اعترف لنفسه ذات مرة بينما يفكر في حياته الممتدة بلا تعقيدات أمامه، أن هناك ضرورة للكذب أحيانًا، ليس من باب الصدق مع النفس وما إلى ذلك الكلام، ولكن لأن الحياة الخالية من الشوائب، الحياة المكونة من عنصر واحد، الحياة الرتيبة تكون قابلة بسهولة للخدش، والإنسان الذي لا يعرف سوى الاستقامة قابل للكسر. كان دوره الحلول بديلًا عن الرؤساء الصغار. يطلّون بروائح كولونيا مميزة، وذقون حليقة ناعمة، وأحزمة وأحذية ونجوم ونسور لامعة على أكتافهم في الصباح. يضحكون، ويتباسطون معه. ليسوا سيئين بالكامل، ولا حتى أنصاف سيئين، ومن هو حتى يقيِّمهم؟! يفكر أن التقييم يحتاج معرفة كاملة لن تتوفر له من تلك الحكايات التي تربطه بهم، إذ إن هناك حكايات أخرى عن الزوجات والأبناء والمشاكل لا يسردونها إلا في غيابه. كان يسمع منها جملًا مبتورة حين يقتحم - بدون قصد - مجالسهم، لكنهم مهذبون يغيِّرون مواضيعهم بذكاء وكياسة.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

كانت مهمتهم إرضاء رؤسائهم، وكانت مهمته إرضاءهم. غضبه من نفسه كان لغضبهم منه. ابتساماته رسمها على الدوام ردًا على قليل من كلمات ثنائهم. اعتداده وفخره بنفسه كانا لتربيتاتهم على ذراعه. حنقه كان لتجاهلهم سهره الطويل أحيانًا لينهي عملًا صعبًا. لكنه فهم أن الحياة تسير في النهاية هكذا. لا يمكنك إجبار الرؤساء على منحك انتباههم كاملًا، قد تقع في حبهم، لكنهم سيحبونك بحساب، ويقرِّبونك بحساب. لو مت قبلهم - وستموت قبلهم - قد يذكرونك في إشارات عابرة، وفي الأغلب لن يذكروك، ليس لأنهم سيئون، ولا لأنهم قساة القلب، ولكن لأنك تسقط من ذاكرتهم، فذاكرتهم تكفي بالكاد أبناءهم وأحفادهم وزوجاتهم ورؤساءهم ورؤساء رؤسائهم، وإذا حدث وأن تحمَّلَته، أو استوعبَته، فإنها ستلقيه غالبًا في المهملات، مع الذكريات السيئة والصعبة والمخجلة، جنبًا إلى جنب مع أحداث مرتبكة غير مفهومة، ومع أحلام يقظة قديمة ظلَّت بلا معنى.

وهو لم يسع أبدًا إلى الحصول على حريته.

الإنسان حر إذا أحب ما يفعله، حتى ولو كانت حياته عبارة عن شبكة معقدة من انتبه واكتب واذهب واجلس واركب وقف واجر واسكت.. وما إلى ذلك من الأوامر، لكنه إن كان مجبرًا على عمله، إن كان مجبرًا على حياته، فلا شك أنه سيحصل على حريته في النهاية. يحصل على نصفها حينما يتقاعد، ويحصل على نصفها الآخر حين يموت.

فكَّر على الدوام، وهو عائد على الطريق الزراعي من وحدته في المركز إلى بيته في القرية، أن الشريطين الكاكي على كتفيه سيمتلئان ذات يوم بالنجوم. ثلاث نجمات ذهبيات يلمِّعها يوميًا. يتمعن فيها، ويتحسسها، ويسمح لزوجته أن تمد يدها لتلمسها، لكن رحلة النسر تبدأ بنجمة، وقد حصل عليها أخيرًا، بعد أن صار شاربه شعرة سوداء وأخرى بيضاء، وبعد أن فقد نصف وزنه في الطريق، وفي التفكير في وجاهة المستقبل، وفي راحة رؤسائه.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

صار بإمكانه أن يضحك بينما يقف إلى جوارهم أمام طابور المستنسخين بثقة أكبر، باعتداد ومرح زائدين عن الحد، لكنهم لم يتغيروا. كان لا ينقصه شيء، حتى رائحة الكولونيا المميزة تفوح من ملابسه كما تفوح من ملابسهم، كأنها الماركة المميزة لأجسادهم. لكن أكتافهم كانت أقوى من كتفيه لتتحمل كل هذه النجوم والنسور. ضحك أحدهم اليوم ولكز بحذائه الثقيل حذاء ثقيلًا، فضحك صاحبه، وضحك الآخرون وضحك هو. كانت حركتهم غير محسوبة، أو قل: فيها خروج صغير عن الصرامة، لكنه خروج مألوف، ويحدث من حين إلى آخر. ثار التراب قليلًا، وتحركت أفرع الأشجار، وطارت بضع يمامات، فتخيل للحظة أن النسور غادرت أكتافهم، ثم عادت إليها مع عودة اليمامات إلى الأشجار.

أكل معهم وشرب معهم وضحك معهم وشاركهم جنازات عائلاتهم وشاركوه جنازات عائلته، لكنه أبدًا لم ينس أن هناك مسافة بينهم، مسافة قد لا يراها أحد بالعين المجردة بينما يجلس إلى جوار أحدهم في عزاء. يلصق كتفَه في كتفِه، ويفكر أن رائحة الكولونيا هي نفس رائحة الكولونيا، والذقن الحليقة الناعمة هي نفس الذقن الحليقة الناعمة، ومع هذا يعلم أن المسافة بينهما أبعد من المسافة بين القرية والمركز.

ظل حريصًا على معرفة أخبارهم. كانوا يرحلون باستمرار إلى أماكن أخرى، لكنهم يتركون وجوههم لمن يأتون بعدهم. إذا جاء أحدهم تهبُّ القرية من المدخل إلى السرادق لاستقباله، ويبدو كما لو أن يوم الحزن على الميت قد انقلب إلى احتفال بالوافد. وإذا ذهب إليهم - في عزاءاتهم - ربما يتقدَّمون باتجاهه خطوة أو اثنتين، بينما قد يقطع أحدهم أمتارًا لتحية أحد أقرانه إذا هلّ من بعيد. لم يكف عن التفكير. لو أنهم يتعاملون بفطرية ما ظهرت تلك الفوارق الطفيفة في التعامل، ما شعر بتلك المسافة الضخمة تفصله عنهم، لكنه يحبهم على أية حال. صار بإمكانه أن يفخر أمام كبار العائلة بتلك الزيارات التي تحدث بين

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

الحين والآخر، خاصة حين جاء أحدهم للاحتفال معه - أمامهم - بأول نجمة.

احتاجت النجمة الأولى إلى ثلث عمره لتعتلي كتفه، لكن النجمة ولدت نجمةً أخرى سريعًا بدَّدت وحدتها في الشريط الكاكي الممتد، ثم ثالثة جعلت كتفيه مكتنزتين، وقادرتين على زغللة عيون الأقرباء في الشمس. تعمَّد السير ببطء مستلذًا بنظرات تتجاوز وجهه إلى كتفيه من الصغار والكبار، لكنهم ألفوها. كانوا قادرين على ألفة أي شيء. فكر أنه لو أحضر إليهم ديناصورًا سيهابونه قليلًا، وسيختبئون في جحورهم، لكنه - ذات صباح - سيجدهم يلهون به ومعه، وربما يستخدمونه في نقل محاصيلهم وأعلافهم من الحقل إلى البيت وبالعكس. سار كل شيء كما خطط له، أو كما خططوا له، أو كما خططت له الحياة. لا تفصيلة زائدة عن الحد، لكنه على الرغم منه تحول ببطء إلى شخص آخر، شخص يعتقد أن الحياة تغافله في المنام لتصبغ شعره بالأبيض، وتذكِّره باقتراب موعد حصوله على نصف حريته ومن يدري - ربما - باقتراب موعد حصوله على حريته الكاملة. أطلَّ العبء من عينيه وجسده الهزيل، وحين جاءته السعادة الكبرى لم تخل من ارتباك.

عرف أن ترقية جديدة في الطريق، وأن عليه أن يزيل النجوم الثلاث ليفسح المجال لنسر وحيد، لكنه شعر بقليل من القلق، فقد عاد إليه إحساس قديم سيئ كان لصيقًا بكتفيه، وبالشريط الكاكي الممتد الخالي على كليهما. النجمات الثلاث كانت تملؤه بالثقة، أما النسر فلا يحطُّ إلا بمفرده قبل أن يقنعوه باستقبال جيران. لكنه سعيد، إذ أصبح أول «رائد» في القرية، وربما الرائد الوحيد لأجيال. فكَّر أن على القرية أن تفرح به، كما فرح الروس بأول رائد يصعد إلى القمر. صحيح أنه رائد ميري لكنه رائد، والرائد يعني أنه الأول، أول شخص يصل إلى مكانته. كان لا بد من احتفال، لكنه - هذه المرة - وجَّه تفكيره إلى أبعد نقطة من رؤسائه الذين لم يعودوا صغارًا، وزحف الصلع إلى رؤوسهم، وسرحت كروشهم قليلًا خارج أحزمتهم، وقرر الاحتفال مع أقربائه

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
وأهل قريته، والتضحية بالكثير، ليكون الاحتفال مميزًا معهم. لقد ألفوا تلك الوجوه الصارمة ذات الذقون الناعمة، ولأكثر من مرة تقمَّصوا أدوارًا لم يطلبها أحد منهم. أدوار جنود يقفون كالنخل في جو ساكن كأنهم تلقوا أمر «انتباه» إلى أن يجلس الرجال الغرباء على أفضل الدكك، وتغوص مؤخراتهم في المراتب الوثيرة.

ولأول مرة لم يأبه للمال. فكَّ عشرة جنيهات «شلنات» و«برايز»، وبعض الأطفال غضبوا، رغم قبولهم بالأمر الواقع، لأنهم وحدهم من حصلوا على خمسة قروش، ولم يكن هناك معيار واضح لحصول آخرين على مبلغ عشرة قروش، حتى معيار السن، لكن الرائد في زمرة الاحتفال أعلن أن معياره النظافة، وأنه منح المبلغ الأعلى لمن يرتدون نعالًا، فنظر الحفاة إلى أقدامهم المتسخة بحسرة. كان يومًا مهيبًا ومشهودًا في تاريخ القرية، التي خرجت لتتابع رائدها، أما هو فانشغل قليلًا بشراء ديك رومي، ثم قرر أن يشتري اثنين. مرَّ على بيوت عجائز يعرف أنهن يُسمِّن الديوك منذ علمن بخبر ترقيته ونيته شراء بعضها. اختار الديكين، والأطفال تبعثروا في كل اتجاه لإبلاغ بعضهم بأن الرائد يسير في الشارع بهما.

يعرف الرائد أن اسم «الديك الرومي» ليس شائعًا، بل «دكر الملط» أو «الدكر المالطي»، ولم يكن العيد عيد شكر، لكنه كان عيدًا له، وكل يوم يكون فيه طعام هو عيد شكر، والكبير يقول للصغير دومًا: «كُلْ واشكر». سار الرائد بهما من شارع إلى شارع. كان يربطهما في أنشوطة من القماش اللين المبطن بالليف والقطن. فكر أن قرار شرائهما في آخر لحظة موفق، إذ يعني أنه لن يضطر للصرف على إطعامهما. إطعام هذه الديوك خراب بيوت إذ تفضِّل صفار البيض، أو هكذا أخبرته زوجته. لم يعرف - على العموم - لا هو ولا زوجته ولا عائلته كلها طعم الديك الرومي، حتى مَن تذوقه منهم تذوقه في عصر غابر، وطعمه لم يثبت في ذاكرتهم. الذاكرة تحتاج إلى تراكم لتحفظ الطعم والملمس والرائحة.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

ثم حدث أمران في غاية الغرابة بالنسبة له..

كان الرائد يقود الديكين أمامه، وبدا لمن يشاهدونه - وقد ملأوا الشوارع - أنهما يقودانه، إذ كانا عفيين، يقاربانه حجمًا، بريشهما المنفوش، وكانا مهيبيْن بصوت مميز، يرن في أذنه كأنه مزيج من كل أصوات الطيور التي عرفها على مدار حياته، مضافًا إليها صوت امرأة مقطوعة اللسان. فوجئ بالأطفال يحاصرونه، ومعظمهم يمسك بقطع من القماش الأحمر. كان على وشك أن يصيح فيهم ليمنعهم مما يفكرون فيه، حتى فوجئ برؤسائه، ربما أربعة منهم يظهرون في سيارة جيب خضراء مكشوفة.

توقفت إلى جواره، فارتبك قليلًا، أو فلنقل بأمانة: ارتبك كثيرًا. خالطه شعور بالإحراج، مع أنه يمسك بديكين باهظي الثمن، كلفاه ميزانية ثلاثة شهور. فهم - في هذه اللحظة - أن الإحراج كان لخشيته أن يفكر رؤساؤه أن أهل بلدته اندفعوا كالموج لا ليحتفلوا برائدهم، ولكن ليحصلوا على أنصبتهم من لحم الديكين الأبيض. زاد ارتباكه – كذلك - لإدراكه أن الصغار يحاولون إحياء أسطورة ظنَّها ماتت، إذ كانوا يتخيلون أن اللون الأحمر يثير الديك الرومي، فمزقوا ملاءات بيوتهم الحمراء لإغاظة الديكين. فكر أنه سيحاول بقدر الإمكان عدم التخلي عن وقاره أمام رؤسائه، لكنه في نفس الوقت لا يدري ما الصواب لعمله، وفي غمرة تفكيره ويأسه كوَّن الكبار ما يشبه الحلبة الضخمة حوله وحول الديكين، وكان مدهشًا له أن رؤساءه هبطوا من السيارة، ولمعت وجوههم بالإثارة، وقد أدركوا أن هناك شيئًا ما، حماسيًا ربما، سيجري خلال لحظات. اتخذ قراره وأفلت الديكين، فشعر بأنه يلقي ثروة على الأرض، لكنه في قرارة نفسه قرر أنه سيلتهم نصيبه من الديك حتى وإن كان متعفنًا.

بدأت المصارعة الإسبانية، وإن استبدلت فيها الثيران بالديكين.

كان الطفل يقف رافعًا بيديه المزقة الحمراء أمام كرشه المليء

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
بالطعام والديدان، مغلقًا عينيه كما يرى في لقطات يعرضها التلفزيون على قناته الثانية. لم يتح لهم أن يشاهدوا الفارس يرتدي وشاحًا أحمر إذ لم يعرف التلفزيون الألوان وقتها، لكن ها هم يمارسون اللعبة بالألوان الطبيعية. كان هناك طفل لمَّاح بين الجموع، أحضر دجاجة من عشة أمه وألقاها وسط الحلبة لتشتيت انتباه الديكين، كما يفعل الماتادور مع الثور، لكن أمه على ما يبدو كانت تطارده من فترة لأنها اندفعت إلى الحلبة لتطارد دجاجتها وهي تصيح في فزع خوفًا على حياة الدجاجة لا حياة طفلها قطعًا. كان جزء يتابعها ويضحك، وجزء آخر يتابع قلق الديكين البالغ من الجموع ويطلق الصافرات لتحميسهما. أصيب الديكان بالذعر. حاولا الفرار، فجريا باتجاه طفل وقفزا على رأسه. تدخل الرائد أخيرًا ليوقف ما يجري، وهو يفكر أن الاحتفال بالنسر كان في حاجة إلى شيء آخر سوى هذه الطيور الداجنة، مفرطة الضخامة، بلَغدها المقرف، وألوانها البشعة.

انتهت العاصفة بسلام. ضحك الرؤساء، وناوله كل منهم نصيبه من التربيت. الأول والثاني ربَّتا على كتفه، الثالث لمس شعره الذي صار في بياض سحابة، الرابع شده ناحيته وخبط كتفًا بكتف، وأخبره في أذنه أن عليه أن يحضر صباحًا إلى النادي، وكانت هذه هي اللحظة التي ينتظرها منذ زمن طويل.

لم يفكر مرة في دخول ناديهم، إذ كان على بعد أميال داخل المعسكر، وبخلاف أنه بعيد فقد يعرِّض نفسه للإحراج، وهو لن يسامح نفسه إذا حدث ذلك، فقد عاش وقته داخل الكتيبة ذات الأسوار شاهقة البياض يلف مثل عقرب الساعة. لا يتأخر عن المجيء في موعده أبدًا، عاش وقته يبحث عن التقدير، ويعتقد أنه حصل عليه، أو على جزء كبير منه، ويطمح في جزء آخر، وقد جاءته الفرصة أخيرًا. في الصباح كان هنالك ما هو أفضل في جعبة الزملاء. لأول مرة يفكر في أنهم زملاء لا رؤساء، بدا له - أكثر من أية مرة - أنهم متواضعون للغاية، وأنه احتاج إلى زمن طويل ليتحرر من فكرة بالية عن المسافة الوهمية التي تفصله

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
عنهم. كان الأربعة أنفسهم ينتظرونه على بوابة الوحدة بالسيارة الجيب الخضراء، أفسح له الراكبان في الخلف مكانًا لينحشر وسطهم، وهكذا صار في العربة خمسة نسور، ولو أتيح له أن يفعلها لصاح وسطهم: «أنا نسر!».

قطعت السيارة المسافة المكتظة بمبانٍ بيضاء وأشجار مهذبة ذات جذوع مطلية بالأبيض، حتى وصلت إلى ناديهم. فكر بفخر أن جنديًا ينظر إليهم من خلفهم الآن، ويراهم خمسة زملاء لا يمكن تمييز أحدهم عن الآخرين في هذه الملابس الزاهية المكوية جيدًا. كان فرحًا ومتحمسًا بعض الشيء. لاح له أن أحد الزملاء تلعثم فجأة، أو كان يحاول إرسال إشارة مرتبكة إلى الثلاثة الباقين، ويبدو أنهم لم ينتبهوا، فهرول أمامهم في الممر المفضي إلى مدخل النادي، كأنه تذكَّر شيئًا ما، أو كأنه أراد التغطية على أمر سيئ حاول تنبيههم إليه لكنهم لم ينتبهوا، محاولًا أن تبدو خطواته وتصرفاته عادية، ثم مد يده كأنه سيفتح الباب، لكن الرائد انتبه إلى أنه ينزع اللافتة الخضراء المعلقة عليه، ولم يلمح سوى كلمة «ممنوع» في بدايتها، و«الكلاب» في نهايتها، ثم شعر الرائد بأن بقية الزملاء انتبهوا، وارتبكوا، وصدرت عنهم همهمات، ثم تغامزوا. لقد لمح غمزاتهم. نعم.. تغامزوا، ولديه استعداد أن يقسم على أنهم فعلوها، لكنهم حاولوا التصرف بشكل عادي.

زالت غمامة الارتباك سريعًا، وفي الداخل وجد زميلهم يقف أمام طاولة ضخمة خالية إلا من مناديل ومفارش تعد بطعام فاخر ووفير، يقف بدون اللوحة الخضراء. كأنها تبخَّرت، لكنه خمَّن أنه أودعها في المطبخ القريب. كان زميله ذاك يفتح ذراعيه مشيرًا بهما إلى كرسي على رأس الطاولة، فابتسمَ الرائد، وزالت ابتسامته، وعادت، ثم زالت. كانت كاللمبة المهتزة تشتعل وتنطفئ مع كل هزة للريح، وفكَّر أن عليه ألا يفكر، أن عليه ألا يكمل الناقص في اللوحة، وفكر كذلك أن ما حدث قد يخصه، وقد لا يخصه، وقد يخصه أو يخص الكلاب، أو يخصه هو

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

والكلاب معًا، وفكر في الكرسي على رأس الطاولة، وفكر في أن يجري باتجاه المطبخ، وفكر في أن يعود أدراجه إلى وحدته، وفكر في مشاعرهم، وفي مشاعره، وفكر في الديكين، وفي زوجته، وفي أعوامه الخمسة والخمسين، ثم هبّت فجأة رائحة الكولونيا من جسده ومن أجسادهم، وكان لها مفعول السحر، إذ أنعشته، ونبّهته إلى ذقونهم الناعمة، وابتساماتهم الرائقة، وكرمهم الواضح، وتواضعهم البالغ، لكنه طمح فيما هو أكثر، أن يحملوه في محفّة، لكنه يعلم أن الأمر بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلًا، وفكر في شيء آخر، لكنه سأل نفسه وهو يزيح الكرسي بقدمه بعيدًا: كيف ينطقها؟! وهل يجرؤ أصلًا على أن يفعلها؟! وماذا ستكون ردة فعلهم؟! لقد بدا له الأمر صعبًا وغريبًا، بل جنوني لو شئتم الدقة، حتى لو أدخلوه ناديهم، حتى لو صار جزءًا منهم، ثم اتخذ القرار، ونطقها. نعم نطقها. وجد نفسه يقول بلهجة آمرة مفاجئة: «جلوس!» فضحكوا وجلسوا، لكنه لم يضحك، ونظر إلى نفسه باعتداد في المرآة الضخمة أمامه، وكانت عيناه تنطقان بالعظمة، لثوانٍ، قبل جلوسه على رأس الطاولة.

بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

ينظر له بالذات، فجرى بذعر في اتجاه البيت، وألقى خالي أرضًا، وجرني باللجام خلفه. صرخت جدتي، وكان علينا أن نعود إلى القس مجددًا.

كان جدي لأمي صديقًا لحماره. حينما أجلس معه بعد عودته ليلًا من المركز حيث يعمل، أسأله هل واجه شيئًا في الطريق، فيحكي أحيانًا عن عفريت يترصده، ويتجسَّد له في هيئة بقرة بعينين حمراوين. آه. نسيت أن أخبركم: هذا القسم من عائلتي يفضِّل رؤية العفاريت في هيئة أبقار، لكن أفراد عائلتي لأبي يرونها على الدوام في هيئة حمير.

كان جدي لأمي يحكي عن أنه نَهَر العفريت. صاح فيه غاضبًا أنه متعب وليس لديه وقت للعب الأطفال، فاختفى فورًا، لكن عاد - في مرات أخرى - ليشد الحمار من ذيله، أو ليُسقِط جوالًا من فوق الحمار على الأرض، وبعد تكرار الأمر مرتين أو ثلاثًا، يهدده جدي بأنه سيقتله لو استمر في مضايقته، فيخاف، ولا أعلم في الحقيقة أي شيء يخيفه؟ وكيف يمكن قتله؟ هل سيحوِّل جدي نفسه إلى شبيهٍ له لينفذ تهديده؟

بدا لي أنني أعيش في كنف عائلة من الأبطال الخرافيين، لا مجرد مزارعين ونجارين وجزارين، أقصى أمانيهم أن يعودوا في نهاية اليوم بقليل من الطعام. لكن ما يعنيني هو علاقة جدي لأمي بحماره. أصدقه إذا قال لي إنه جاء من المركز على بُعد كيلومترات سيرًا، لأن الجوال الذي يحمله الحمار في هذا اليوم كان ثقيلًا بعض الشيء.

ينهض جدي فجأة ويتجه إليه في ركن البيت. يمرر يده بين عينيه أو على عنقه، يتأكد أنه لم ينه بعدُ حزمة البرسيم، وإلا لطلب من جدتي أن تلقي له بكومة تِبن. لا ينام إلا حين يطمئن عليه، قبل حتى أن يطمئن على أولاده وأحفاده، لدرجة أنني فكرت أن أسأله هل كان حمارًا في يوم من الأيام؟! وفكرت في الاعتراف أمامه بسرِّي الصغير. أنا حمار من أيام سيدنا نوح.

صارت علاقتي بجدي لأمي أقوى، ليس لأنه أحبَّ حماره أكثر مما

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

أحب جدي لأبي حماره، ولكن لأننا انتقلنا للسكن في المركز. صار بإمكاني رؤيته يوميًا في دكانه. عهد إليَّ بمهمة رعاية الحمار أيام وجوده هناك. كان يتركه في فناء صغير بالقرب من دكانه. يمنحني جنيهًا كاملًا، ويقول لي نصف جنيه لك، ونصف للحمار، لكنني اختلست قروشًا منه على الدوام، وفي كل مرة فعلت فيها هذا سيطر عليَّ إحساس بالذنب، لكنني عزيت نفسي بأنني أشتري بها كتبًا نتشاركها في خلواتنا.

كان مطلوبًا مني أن أذهب إلى سوق صغيرة لشراء البرسيم. أقف أمام البائع في كل مرة فيضع ربطة صغيرة في يدي، يتبعها بأخرى، فثالثة، حتى تصير حزمة كبيرة أحملها مسافة طويلة إلى أن أبلغ الفناء. أنظر من فُرجة علوية بالباب، لأطمئن أنه ليس غاضبًا أو لن يهاجمني فجأة. أضع البرسيم أمامه ثم أحمل الدلو شبه الفارغ وأملؤه من برميل في الجانب، وأعيده إليه. كان حمارًا هادئًا، مثل جدي، كأنهما خليلان. لا يتناول الطعام إلا إذا سمع صافرتي، أطلقها منغّمة، حتى إنني أتعب من فرط التركيز في تمرير الهواء عبر ممر أصنعه في شفتي السفلى، من خلال الضغط عليها بالسبابة والإبهام، فأسعل. وأتخيل أن قلبه قد يرقَّ لي، وتكون لحظة سعادتي القصوى حينما يُمِيل رأسه إلى الأرض وينقضُّ على البرسيم.

كبرتُ كفاية لأفهم أنه لن يستوعب أبدًا أنني من جنسه، وكان قد كبر بما فيه الكفاية ليتقاعد. جدي كان رحيمًا وقرر أنه لن يتخلص منه بأي شكل، وفرحت لأنني سأستمر في رعايته، وفي حبه، وفي قراءة قصص له. لو كان هذا الحمار بطلًا لقصة الثعلب والأسد العجوز فلن يموت، بعكس الحمار في «كليلة ودمنة». قرأت تلك القصة وقررتُ عدم إكمال الكتاب. بدا لي أن مؤلفه - مثل سائر البشر - يحاول أن يلصق به وبنا - نحن الحمير - صفة الغباء. من يصدق أن الحمار قد يقتنع بأن الأسد يراه لبؤة؟! لو كان حمار جدي بطل القصة لرفع حافره وضرب الثعلب في رأسه ردًا على محاولة هذا الشرير إقناعه بالعودة إلى الأسد

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

العجوز. كان يعلم أنه يحاول اقتياده إلى الفخ مجددًا، والحمار لا يكرر خطأه، لكن الحياة لم تمنحه وجهًا مسحوبًا، وعينين مائلتين كالثعلب ليبدو ماكرًا أو خبيثًا.

كنت مولعًا بقصص الحمير، لكنني أطرد من ذاكرتي ما لا يعجبني منها. أعرف مثلا أنه لو كان حمار جدي مع باخوس لعرف معنى السعادة، ولو كان مع المسيح لعرف معنى المجد.

وحين قرأت قصة الملك ميداس تمنيت لو أن حمار جدي معه. كان على الأقل سيخفّف عنه ألمه، وربما أقنعه بأنه صار مميزًا بأذنيه الطويلتين الجديدتين، أذني الحمار. كان سيقول له: صار بإمكانك أن تسمع الخونة في كل مكان، وهم يفضحون أنفسهم، ويسخرون من أنفسهم، ويتآمرون على أنفسهم، لا عليك فقط.

انتصر ميداس الطيب لمارسيا، مع أن بإمكانه إراحة نفسه والوقوف في صف أبولو، لا في صف كائن نصفه إنسان ونصفه ماعز. كان أبولو سينتصر، إذ إنه إله، والآلهة لا تنهزم، خاصة حين يكون الحَكَمُ بينها وبين أنصاف البشر آلهةً تشبهها. عزف أبولو، وعزف مارسيا، فصاح إله جبل تيمولو وهو يتثاءب: «الفائز هو أبولو. عزفه أفضل بكثير!». لكن ميداس صاح فيه بقوة: «مارسيا أفضل. أنا أحببت مارسيا»، فلعنه أبولو المغتاظ، واللعنة أصابت أذنيه. لو كان حمار جدي معه لصاح فيه: بإمكانك أن تنهق يا ميداس لتغيظ أبولو. بإمكانك أن تنهق لتقول له إنك فخور بكونك من فصيلتنا.

كان جدي لأمي سليل باخوس والمسيح وميداس، وجدي لأبي ابنًا بارًا لأبولو. وقد أدركت ذلك مع مرور الوقت.

استيقظت مبكرًا - ذات صباح بعيد - وكانت شمس إخناتون تمد أذرعها الحانية وتربِّت بأصابع رقيقة على الجميع، حتى إن حمار جدي لأبي كان هادئًا - على غير العادة - كأنه يعلم أن اليوم إجازة، والجميع يرغب في بضع ساعات نوم إضافية، أو كأنه هو نفسه يرغب في

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
الاستمتاع بإجازته الصغيرة. رأيت جزءًا من حزمة سيقان ذرة على الأرض، لم يقربها، فبدا لي مريضًا. ليست هذه عادته، إذ يُجهز على الحزمة، لا يترك منها شيئًا. كنت لا أنزع جميع كيزان الذرة الخضراء الطرية من الأغصان، وأترك له واحدًا، فأنا أعلم أنه لن يكف عن إزعاجنا، إلا حينما نستعير قليلًا من برسيم الماعز ونضعه أمامه. كنت أعلم لأن الله خلقني يومًا ما من فصيلة حمير لا تقرب الطعام إذا مرضتُ أو اكتأبتُ أو شعرتُ بالظلم، ثم قررتُ الإقدام على خطوة غير محسوبة، أن أخفف عنه، وأمتطيه لأول مرة في حياتي بمفردي، لكن طولي لم يساعدني.

عليه أن يثبت لي أنه يعرفني ويشعر بجيناته تسري في عروقي. كنت جده ذات يوم هذا البائس الصغير. لكم استمعت إلى نهيقه كأنني أستمع إلى عزف موسيقى. ينهق فأنظر من شباك غرفتي إليه وهو يفتح فمه الضخم الجميل، فتبرز أسنانه القوية، ولسانه الأحمر النظيف. يبدأ بتلك النغمة الأولى المبحوحة، ثم تتداخل النغمات، إذ يجاوبه حمار، أو اثنان، أو أكثر، من وراء الجدران الرمادية، فيبدو كأن الحمير والجدران تعزف سيمفونية. كان عليّ أن أتصرف وتصرفت. قلبت جرّة نحاسية ضخمة فارغة، وجررته إليها. قفزت فوقها، وفي لحظة أصبحت فوقه. قررت أن أحكي له كل شيء في الطريق، متحديًا شكّي في أن يكون جدي لأبي صادقًا، وخوفي أن يكون الحمار متهورًا، فيلقيني في المصرف، إذ سأموت مختنقًا بمزيج من قاذورات البشر والحيوان والزواحف والطحالب السوداء المتعفنة، لكن المغامرة كانت أكبر من كل شيء، أكبر من شطحي وخوفي، وأكبر من تفكيري في النهاية.

في حياة ماضية بعيدة كنت جدًّا لهذا الحمار، بل جد أجداده. وقفت أمام سفينة نوح، غير خائف من ألا أجد مكانًا في السفينة. نوح منظم، لم يسمح لنا بالتدافع. عرفت أنه لن ينساني، وإذا نسيني سيحملني الموج إليه، أو ربما تنبهه الحيوانات الطيبة في الأعلى. قال لي ثعبان: إن نوحًا يئس من إصلاحي، فوجهي محايد، غاضب ربما، حزين ربما، لا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
تعلوه ابتسامة، ولا ينتظر شكرًا، وإنما ينتظر الخلاص من الجميع وربما من نفسه. أنا هذا الكائن غير المكترث. رمز التجاهل، لا الصبر. رمز التعالي لا الدأب. رمز النفور لا الجَلَد. رمز التباهي لا الكسل. لكن الثعبان لم يكن يعلم. أنا من كان يعلم، أن نوحًا سيحتاجني في الحياة الجديدة، بعد أن تجف الأرض، ويظهر الحطام، كما احتاجني أنا وأبنائي في تحميل الجذوع الضخمة، لا مانع عندي أن أستمر، إذا أراد تجديد عقدي لأعيش حياة أخرى، أعيش لأتباهى بقدرتي على تنفيذ الأوامر مع تجاهل الألم، لست مندوبًا للبشر. إنهم غاضبون على الدوام، حانقون لأتفه الأسباب، يصنعون آلهة ليثوروا عليها. ويثورون عليها ليكتبوا قصص بطولاتهم. ثم بعد أن يملُوا من قراءتها يكتشفون أنهم في حاجة إلى قصص أخرى، فيصنعون آلهة. يثور البشر لأتفه الأسباب، فما بالك إن استعبدهم ملوكُهم استعبادهم لنا؟! لا ينفك الرجل منهم يتحدث عن إنسانيته بينما يجلدنا بسوطه، كأننا لا نشعر، لكننا سنتجاهل الألم، لنستحق جائزتنا: أن نكون - نحن الحمير - رمز التعالي.

ظهر نوح وقال لي: «اركب معنا»، فركبت.

أعرف أنهم يكذبون ويخبرون الجميع أنني كنت آخر الراكبين، هذه واحدة من أساطيرهم، ليهيلوا التراب على تسببهم في لعنتي. يحكون باستمتاع عن شيطان لف ذيلي في قبضته بإحكام، وتسلل من خلالي إلى السفينة. سبق الشيطان الجميع، وكان نوح يعلم. لا ريب أنه يعلم. أراد الله منذ اللحظة الأولى أن يُطلِق الشيطان على آدم ونسله، وفي حياة البشر الثانية لم يقل أحد إن السفينة ستقلَهم إلى الجنة، وكان لا بد من استمرار الشرير في وظيفته. حاول الشيطان أن يقنع حيوانات السفينة أنني لم أساعده، لكنها لم تصدق، أو أرادت ألا تصدق، أو أمِرتْ بألا تصدق.. كان هناك شريك له في السفينة يعرف نفسه، شريك من مصلحته أن يؤمن الجميع بأنني الفاعل، ولم أحاول الدفاع عن نفسي، يكفيني تربيت الشيطان على رأسي كل مساء، فأنهق لأحييه. نعم. ينهق الحمار لتحية الشيطان، ينهق ليخيف البشر، فهم يعلمون أن الشيطان

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
يمر أمامه، ويضحك الحمار حين تهتز شعراتهم في أجسادهم، ثم تنتصب كالدبابيس، ولا يهتم أبدًا باعتقادهم أنه خائف. لو كان لهم عقل لعلموا أن الشيطان أعزُّ صديق للحمار.

كان الحمار يشعر - على ما يبدو - بأفكاري تسري من رأسي إلى رأسه، فقد أبطأ من خطواته قليلًا، وحين تحرر منها، أو حين توقفتُ عن إرسال إشاراتي، تحول فجأة إلى حصان سباق، وكانت هذه مشكلة، أولا لأنني أفتقر إلى خبرة قيادته، وثانيًا لأنني اكتشفت في هذه اللحظة أنني لست حمارًا ولا جدًا لحمار حقيقي، وإنما أنا بني آدم حمار على ظهر حمار، وإلا لكنت قادرًا على أمره دون كلام، لكنَّ شيئًا ما في أعماقي كان يخبرني أن اللحظة ستأتي وأستطيع أن أتحدث لغته، أن أنهق لأحييه فينهق ليحييني، أن آمره ألا يأكل من ذرة الجيران في الدرب الطويل المتعرِّج الذي يربط حقلنا بحقولهم فيصيح أن عليَّ اعتبار الأمر منتهيًا، ثم كانت المشكلة الضخمة بالنسبة لي اكتشافي أنني أمتطي الحمار دون بردعة. كانت عظام ظهره الحادة المدببة شبيهة المثلثات، تغرس رؤوسها في مؤخرتي وتؤلمني، بينما الحمار لا يكترث سوى بمتعته. كان صافي الذهن، فرحًا بالنسيم، ولديه إحساس بأنه ملك القرية في هذه الأوقات السعيدة المفاجئة، وربما بالغ في اعتقاده قليلا وتخيل أنه تخلص من جدي للأبد، لكنه لا يعلم ما ينتظره وينتظرني. www.maktabbah.blogspot.com

استعدت في هذه اللحظة حكاية جدي المتكررة، وهي تبدأ حالما يشعر بسهولة السيطرة على الحمار، إذ يسير الحمار أو يجري في خط مستقيم، فيحرر جدي اللجام من يده أو يحرر يده من اللجام، ويبدو أن الحمار ينتظر بصبر بالغ هذه اللحظة. ينحرف بسرعة بالغة صوب المصرف ويرفع قائمتيه الخلفيتين ويطوِّحه باتجاهها، وحين يخرج جدي بمفرده أو بمساعدة الناس ملطَّخًا بالقذارة والخجل، يسير إلى جواره صامتًا، وحانقًا، وغاضبًا. يستحم، ثم يستل عصا، ويبدأ وصلة ضرب قد تمتد لساعة، مع كثير من الشتائم وعبارات اللوم. بعدها

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

يجلس متوجعًا، ويرفع يديه داعيًا بموت الحمار. كان الناس يطرقون بابنا ليهدئوه أحيانًا. لكنهم بعد تكرارٍ كثير تركوه. أتسلل، من خلفه، لأربِّت على ظهر الحمار. أمرر يدي على علامات العصا في جسده. لا تترك الضربة علامة غائرة في بطنه إن كان شعره كثيفًا، لكنها تبدو واضحة على رقبته وعظام وجهه، يبدو خائر القوى، يتوجع بصمت، حتى إنه لا يستطيع هز رأسه ولو ببطء ليطرد الذباب والزنابير من وجهه، كما أنه يبدو راضيًا لأنها تساعده على الخلاص من كتل الدماء المتجلطة. يأمرني جدي بأن أقص شعره تمامًا، لكنني أطلب من حلاق الحمير أن يخفف شعره فقط، إذ أعرف أن الشَّعر هو حمايته الوحيدة من عصاه.

انطلق الحمار بي على طريق «القصر»، ثم انحرف إلى الدرب الضيق المتعرج الطويل، حيث حقولنا. كانت أصعب لحظة حين عبر إلى جوار الساقية العميقة بنفس سرعته. لو ألقاني فيها لما عثروا عليَّ إلا جثة طافية. كنت أخاف وأنا أسير إلى جوارها فما بالكم وأنا أركب حمارًا يظن نفسه حصانًا في تلك اللحظة؟! أخبروني - كذلك - أن الدرب والساقية مسكونان بالعفاريت، لكنني اطمأننت في هذه اللحظة حينما تذكرت أن الشيطان صديق الحمير، وسيحمينا من أي عدو.

وصلنا إلى بوابة حقل جدي، وهي صغيرة للغاية، تتوسط جدارًا طينيًا واطئًا، مدفونًا في أجمة ذات لون يتدرج من الأصفر إلى الأخضر الزاهي. فماذا بعد؟! وصلت إلى آخر حدود العالم سليمًا، ويجب أن أفكر في القفز، والعودة مترجلًا. لكنه لسبب ما - لم أستطع تخمينه - استدار وانطلق كالريح في الاتجاه العكسي. شعرت بالنقمة عليه، بل إنني بالغث وقررت التبرؤ منه، من هذا الحفيد الجامح، فلا يمكن للحمير أن تعبث على هذا النحو، غير مسموح لها بالجري بلا هدف، باستثناء الإناث، من حقها أن تهيم في الشوارع رافعة عقيرتها، منادية على الذكور الغارقة في أحلام اليقظة خلف الجدران.

شعرت بمؤخرتي تتمزق، لكني تجاهلت الألم، ولم أفكر سوى في

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
اللحظة التي أصل فيها..

أمي شدت بنطلوني إلى أسفل وتأملت مؤخرتي الدامية على ضوء مصباح تحمله في يدها، كتمت صيحتها حتى لا ينتبه أبي، ومع هذا أرادت أن تخيفني. قالت إنها ستخبره، كأنها قاضٍ قرر إحالة أوراقي إلى المفتي، فبكيتُ بصمتٍ. لم يكن أبي في حاجة إلى إخبار، لأنه جاء وأكمل الفرجة على مؤخرتي بالكشّاف. بدا أنَّ أمي شكت في اعتداء شخص عليّ، وأبي طمأنها بعد فحصي، لكنه لحسن الحظ أفرج عني، كما أفرج جدي عن الحمار معتبرًا أن اللوم يقع عليَّ. بعد قليل أوقدوا نارًا للتدفئة ونادوني لأجلس معهم. كان جدي يحكي حكايته الغريبة، على حسّ جريمتي. أبوه عاد ذات مرة من الحقل مترجلًا. اشتد به التعب، ولحسن حظه رأى حمارًا شاردًا. لم يفكر في صاحبه، وامتطاه فوزًا قائلًا لنفسه إنه مثل جميع أقرانه سيعود إلى صاحبه من تلقاء نفسه، ثم غفا على ظهره، قبل أن ينهض فزعًا حينما ضربت أوراق شجر رأسه. تخيَّل أن الحمار شرد في حقل من الحقول لكنه فوجئ بنفسه في السماء، أعلى حتى من النخل. فهم أن الحمار هو في حقيقته عفريت، وقد خدعه. تركه يعتليه ثم أطال سيقانه بحيث أصبحت في طول النخل، لكن الأب الشجاع - بحسب جدي - أخرج مفكًا من جيبه ووضعه على رقبة العفريت، وهدده: «نزلني!» وقال العفريت بعناد: «لا!» فغرز الأب المفك حتى اخترق لحمه، وعرف العفريت أنه ينفذ تهديده، فقلل من طوله وعاد في هيئة حمار عادي، وأنزله. قلت لأبي إن جدي مخترع حكايات، فضحك. وسألته إن كان جدي الأكبر مزارعًا، لا نجارًا، فلماذا يحمل مفكًا في جيبه؟! ويبدو أن أبي قد نقل له هذا الكلام، فقد أصلح الثغرة في حكايته بعد ذلك، إذ استبدل المفك بمنجل، وبعد ثلاثين عامًا استبدلها بصاعق كهربائي. كان أمرًا غريبًا فجدي الأكبر مات حتى قبل أن تعرف قريتنا الكهرباء، بل إنه مات قبل أن يجرب الصابون «أبو ريحة»، وظل يستحم بصابون الغسيل. كنت مجبرًا على الاستماع، فقد مرّ اليوم بسلام، ووصلت إلى البيت، كما وصل المسيح إلى أورشليم.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

نعم. كنت حمار المسيح، وشعرت به خفيفًا كريشة على ظهري ونحن على أبواب أورشليم. كان الناس في استقبالنا وهم يحملون السعف الأخضر والذهبي، ويهتفون: «الجالس على الشاروبيم. اليوم ظهر في أورشليم. راكبًا على جحش بمجد عظيم». كما كنت حمار باخوس، واستقبلني الناس بالعملات الذهبية. مع عيسى عرفت الحب، ومع باخوس عشت المجون. مع عيسى اعتدت الشعير، ومع باخوس غرقت في الخمر. منحني عيسى البصيرة، ومنحني باخوس نساءه، منحني المسيح السكينة، ومنحني باخوس البهجة. تذوقت في أورشليم الفرح العارم، وفي روما قنينات النبيذ، وفي داري الغضب والعصي والأحذية القديمة.

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF

تابعونا على الموقع الرسمي

www.maktabbah.blogspot.com

أو على قناة التيليجرام

t.me/alanbyawardmsr

www.maktabbah.blogspot.com

التيس

الحياة القصيرة الجميلة

رغم أنه خُلق في هيئة إنسان مثل أخيه إلا أنه لم يكن راضيًا على الدوام. اعتقد أن الله منح الأخ أشياء ما كان يجب أن يمنحها له، أشياء جعلت الفارق بينهما كبيرًا، أكبر حتى من فارق السن.

كان يؤلمه بقسوة أن أخاه قد استحوذ على كل شيء ممكن. جاء إلى الدنيا أولًا لتبدأ المؤامرة عليه. لو نال هو هذا الشرف، لصار كبير الدكَّان، ولصار شقيقه مساعده الصغير، ثم إن الأخ أكثر وسامة، أو هكذا تخيَّل، مع أن ملامحهما متقاربة للغاية، والفوارق بينهما طفيفة كالفوارق بين تيس وتيس أحدهما ذو قرنين أطول قليلًا من الآخر، كما اختاروا له اسم «جمعة»، تيمنًا بيوم واحد، لكنهم منحوا أخاه اسم شهر كامل يحبه الناس. «رمضان».

الحيوانات كذلك تكرهه، وتحب أخاه. يكفي أن إطلالة وجهه تُفزِعُها. هذه الكائنات الطيبة تعتبر أن رؤية وجهه أسوأ ما يمكن أن يحدث لها خلال اليوم، لكنها لا تعلم - مع الأسف - أن الله يحبها، إذ إن اعتيادها على هذا الوجه يعني إمكانية اعتيادها على أي شيء آخر، بما فيه لحظة اقتيادها إلى ساحة الذبح.

لم تكن هذه هي كل مشاكل جمعة، فهو يحبُ أكل اللحم نيئًا، يستلذ بذلك، كأنه حيوان في غابة. لو تركوا له حرية الاختيار لألقى بقطعة اللحم على الأرض وزحف إليها على أربعة ليأكلها، فهذا أفضل وضع طبيعي بالنسبة له ولها، لكن رمضان لم يسمح له بذلك، كما لم يسمح له بالتهام قطع كبيرة نيئة، ولا حتى قطع صغيرة. تجاهل أخوه فقط الجرامات القليلة التي يلتهمها من أعلى طاولة تقطيع اللحم، وهي جذع شجرة، تحمله ثلاثة قوائم. يتلقى بصبر ضربات ساطور مسنون تترك

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
فيه جروحًا غائرة، تمتلئ - على مدار اليوم - بجرامات من اللحم والدهن وبقايا العظام. كان جمعة إذا خفت أرجل الزبائن، يمرر سكينًا صغيرًا - بمهارة بالغة وبسرعة - في شقوق الخشب. يجمع البقايا، ثم يكوّرها في راحة يده. لا يلتهمها مرة واحدة، وإنما يلقي بجرام منها إلى فمه، ويبقيه دقائق، مستلذًا بطعمه، قبل أن يمرره إلى بطنه.

امتلك - بمرور الوقت - قدرة مذهلة على فصل اللحم الأحمر عن العظم. أحبَّ الدهن واعتبره الحلوى المفضلة. كان يحرِّك قطعة باردة في فمه، لتلمس - بقدر الإمكان - كل جزء منه. يمسح بها لسانه من أعلى، ثم يردمها أسفله. يلقيها كالعاصفة لتضرب لحم خديه يمينًا ويسارًا، ويحتفظ بها في تجاويف ضروسه المتسوِّسة، ثم - بعد كثير من الصمود - يستجيب لنداء بطنه ويتركها تهوي إليه كصخرة. استغل سلخ الحيوانات وفصل اللحم عن العظم، في تمزيق جرامات وإلقائها في الهواء بخبرة باتجاه فمه. فكّر كثيرًا في أنه وأخوه محظوظان إذ منحهما الله مفاتيح التحكم في بطون القرية. كان باستطاعتهما الذبح يوميًا، لكنهما يعلمان أن الناس ليس بمقدورهم شراء اللحم إلا مرة في الأسبوع، واختاروا الخميس ليكون عيدهم.

يسمع موسيقى البطون تتعالى في الظهيرة - أيام الخميس - أقوى من طنين الذباب والزنابير، وهمهمات الجيران وهم عائدون هربًا من خواء الحقول والمساجد، وهجير المصاطب، إلى بيوتهم، فرحين برائحة الدهن القوية فرحةً لا يمكن التشويش عليها، حتى مع علمهم أن أنصبتهم صغيرة للغاية. بضع أوقيات، وقطع شحم، وكثير من العظام، بينما كان عليهم - بقية أيام الأسبوع - شرب ماء الفول الأخضر المسلوق، بعد أن يكفهرّ من الغليان على مواقد الحطب.

تزيد أمهاتهم وزوجاتهم مقدار الملح، اعتقادًا منهن أنه سيقوم بدور اللفت المخلل، ليساعدهم على البلع، لكن الأمر كان يفلت منهن على الدوام. يضطر الأولاد والرجال إلى تفصيص الفول، ونقعه في أكواب مليئة بالمياه النظيفة، لتخفيف الملح، وبرغم هذا المجهود البالغ إلا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

أنهم ينهضون جوعى لا يستطيعون التفكير في شيء سوى أصوات المخلوقات الجائعة داخلهم. لا يكون أمامهم إلا الرضا بالملوخية الباردة أو العدس، أو البصارة، أو الحلبة الخضراء، وأحيانًا العيش والملح. لم يجرِّب هو وأخوه لحسن الحظ هذه الأمور، واعتقد أن عليه أن يسامح الله في بعض الأمور السيئة التي تجري له.

كان جمعة ينام وهو متأكد أنه سيستيقظ في الصباح طالما أن معدته ممتلئة، بينما يحاول أخوه إقناعه بأن الناس ينامون ولا يضمنون العودة أبدًا. يرفع صوته بعبارات من قبيل أن الأعمار صارت قصيرة، ولو قُدِّر لأحد أن يتجاوز بأعجوبة الستين، فليس لأنه أفضل حالًا من الجميع، بل لأن رئتيه وكليتيه وكبده وأمعاءه وأوردته أكثر قدرة على تحمل الغبار والعكارة والدخان. كان جمعة مندهشًا لا بسبب رأي أخيه فقط، ولكن بسبب ما يفعله الجيران. أول ما يفكرون فيه صباحًا هو أن يهزُّوا أجساد الكهول في أسرَّتهم، وحينما لا يُبدون استجابة ينتابهم الخوف. يجرِّبون مرة أخيرة، وحين يتيقَّنون من سكون أجسادهم يبدأ الصراخ، لكن بعض الكهول كانوا يعودون من الموت على ما يبدو. يفتحون أعينهم ويقفون بتململ. تسقط عن رؤوسهم وأجسامهم مجرَّات من البق والقمل والبراغيث، يتحركون ولكن لن يكون بمقدورهم فتح أعينهم في الغد القريب.

ظن أن الناس يموتون في القرية فجأة لأنهم لا يحصلون مثله على نصيب وافر من اللحم. اعتبر رأي أخيه غريبًا، بل كأن لم يكن، إذ حاول إقناعه بأن الناس يتحولون - بمرور الوقت - إلى آلات شبه معطَّلة، تحتاج إلى تنظيف وتزييت وتلميع وقطع غيار، لكنهم في القرية يستمتعون بتحلل أجسادهم في بيوتهم الشبيهة بقبور واسعة. كانا يستيقظان - كل فترة - فزعَين على ولولة سيدات، تتعمدن الطواف في الشوارع والتوقف أمام كل بيت موصد حتى يحصل على حصته من النعيب. يفزّ الرجال والنساء والأطفال من مراقدهم، أو يعودون للواقع من سرحانهم وأحلام يقظتهم، ليكتشفوا أن كهلًا جديدًا في منتصف

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة

www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
الأربعين أو على مشارف الخمسين قد مات. يستمعون إلى أحاديث أقربائه عن آخر لحظاته، ويتمنون بحسد بالغ ميتة بسيطة شبيهة، فقد نام ولم ينهض، ويتناسون في حكاياتهم أنه تعذب لعشرين عامًا - على الأقل - بأمراض متوطنة.

مارس جمعة بعض الهوايات الصغيرة - تعلَّمها من أخيه - كأن يخبئ قطعة عظم في كفة الميزان الغائرة، فلا يراها الزبون، ثم يرفعها أخوه مع قطع اللحم مرة واحدة، ويضعها في ورقة يحملها هو بين يديه فيتولَى لفَّها بسرعة وبراعة منتشيًا بالخدعة. فهم الناس بعد فترة ما يفعله الاثنان، وبدأوا يمدون أيديهم إلى كفة الميزان ويُخرِجون قطع العظم بغضب، لكنَّ أخاه ظل لشهور يقنعهم أنه مضطر لذلك إذ يشتري الحيوان بجلده وعظمه وشحمه، وبالتالي فهو مضطر لتقسيم العظم والشحم على الجميع، إما عظمة أو قطعة دهن. فضَّل الجميع الشحم، لكنه حين ينفد، كانوا يحصلون على العظم إجباريًا.

لم يشعر بالحب تجاه أخيه أبدًا. احتفظ بمشاعره الجارفة كلها للحيوانات، لكن تلك الحيوانات - التي تعلم أن أعمارها قصيرة ولا يمكن تضييعها في علاقة مع مخلوق مثله - عبَّرت له بكثير من الأشكال عن ضيقها من وجوده، بدءًا من إظهارها أقصى درجات الفزع بمجرد رؤيته يخطو في فنائها، مرورًا بإصدار أصوات مبالغ فيها للتعبير عن خوفها واحتجاجها وغضبها، وانتهاء بتراجُعِ صغارها إلى مؤخرة الصفوف في رعب بالغ..

أما لو دخل أخوه فتقف الحيوانات - كبيرها وصغيرها - في مكانها بثبات، مع أنه أكبر قاتل في هذا المكان، بل في القرية كلها. ضايقه الأمر، لكنه عزَّى نفسه بأن الحيوان لا يمضي أكثر من شهر في الفناء، ولا يمكنه أن يحفظ ملامحه في تلك المدة القصيرة، لكنه يعرف بالطبع أنه يكذب على نفسه ويصدقها، إذ إن المدة قصيرة أيضًا ولا تكفيها كي تقع في غرام أخيه. ثم قرر أخيرًا أنه لا يريد صداقة أحد، لا صداقة أخيه، ولا صداقة الزبائن، ولا صداقة الحيوانات، إنه موجود هنا ليؤدي

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
دورًا معينًا، وهو إعداد الحيوانات للذبح.

يستخدم قشر الفول غالبًا، إذ إنه العلف الذي يضمن تلوين لحم الحيوان بالأحمر، لكنه لا يتوفر طوال العام، وكي يطيل أمد استخدامه يخلطه بالتبن. يملك الاثنان - جمعة ورمضان - بضعة قراريط يزرعانها بالقمح، وبعد الحصاد يدرس العمال أعواد القمح بالماكينة لتتحول إلى تِبن يكفيهما حتى موسم الحصاد الجديد. يتبخر قشر الفول والتبن، فيلجأ جمعة إلى أغصان الذرة الخضراء وأوراقها الضخمة. كانت قادرة على نفخ الحيوان في أيام باللحم الأبيض. فهم منذ طفولته مراحل تدرج الحيوانات من الطفولة إلى الكهولة. يقتاد البطش، وهو طفل الجاموس - بلغ يومه الأربعين بالكاد - إلى ساحة الذبح، دون أن يرف له جفن، لكنه للأمانة هو وأخوه لا يلجآن إلى ذبح الصغار إلا بعد الأم والأب وبقية العائلة. يعرف أن لحم البطش، في خفة فقاقيع الماء، وربع الكيلو منه يملأ ورقة اللف الصفراء، ولذلك حين يسري خبر في القرية بأنهما سيذبحان بطشًا يهرولون إليهما في المنزل ليحجزوا أنصبتهم الصغيرة، لكنَّ الاثنين يضطران لإغلاق الباب عليهما، ولا يلتفتان للطَّرْق، إذ إن البلدة بالكامل تريد حجز لحم الطفل الصغير.

ولو قُدر للبطش أن يكبر قليلًا، وينهي عامه الأول بسلام، لاختمر لحمه قليلًا، وأصبح طيب المذاق، قادرًا على إدارة الرؤوس، لكن البعض يفضلونه حين يتقدم في العمر أكثر، أي حين يصبح عجل جاموس، يفضلونه كبيرًا إذ يرون أنه لا معنى للحم يذوب في الفم مثل حلوى شعر البنات. على اللحم أن يترك تأثيرًا قويًا في الحلق. طبقة قوية صعبة الإزالة، تحتاج إلى سكين لكختها مع كثير من رغاوي الصابون.

لا يغسل الكبار والصغار أفواههم بعد تناول اللحم، يخرجون إلى الشارع، يفتح الواحد منهم فمه بمجرد مصافحة الآخر، يزفر في وجهه، قائلًا: «زَفرا»، فلا يتضايق الآخر، إذ يحصل على دوره، فاتحًا فمه كفرس النهر، وهو يهتف بدوره: «وأنا أكلت زفرا»، لكنَّ أسرًا وعائلات

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

كاملة، لا تغادر أبواب بيوتها.

في بدايات الليل تبدأ النساء محاولة التصرف. تختلط سماء البلدة بكثير من الروائح، رائحة العصيدة الثقيلة، أو العيش الساخن المغطَّى بالسمن البلدي والسكر، أو البيض المقلي، أو المكرونة الغارقة في اللبن والسكر، وقد تغامر إحداهن في لحظة طيش بذبح إحدى دجاجاتها، أو ديوكها أو أوزاتها أو بطَّاتها أو حتى زوج حمام لإسعاد رجلها وصغارها، ثم تكثف من دعائها لينفخ الله في بذورهم، ويكون الحصاد أفضل حالًا من الموسم الماضي.

يحب جمعة لون البقرة الأصفر الفاقع، يعرف بلمحة سريعة الخروف من النعجة، يطارد صغير الماعز الأسود السريع ذا الذقن البيضاء وهو يهرول في أرجاء المكان، ويفهم إن كان ذكرًا سيصبح جديًا، ثم تيسًا - يشبهه هو نفسه كما قال له أخوه - أو أنثى تصبح معزة. إن كانت معزة فلا بد من ذبحها مبكرًا، في العام الأول، أو الثاني، وفي أسوأ الظروف خلال خمسة أعوام، وإلا يتحول لحمها إلى ما يشبه المطاط، حتى إن وُضع على الموقد ليغلي ساعات.

ترك له أخوه مهمة ذبح صغار الحيوانات. يقتادها إلى مدخل الفناء، يربطها في جذع نخلة، لأطول وقت ممكن، بحيث يراها السائرون، ويعرفون ما الذي سيشترونه هذا الخميس. يجمع قدميها الأماميتين معًا، والخلفيتين معًا، يريحها على الأرض، ثم يذبحها بسرعة. لا يتوقف إلا بعد أن يتدحرج الرأس أمامه، ويعلق الصغير في خطَّاف تمهيدًا لسلخه. يشق البطن والصدر معًا، ويُخرِج الأحشاء، ومعها الكبد والرئتان، ويكوِّمها فوق الجلد، حتى يأتي بائع الأحشاء ليحملها من الأرض، ويبيعها على طاولة قريبة من دكانه هو وأخوه.

لا ينسى وسط انشغاله أن يرفع الرأس. يفصل اللسان عنه، ويخبِّئه في جيبه، مع الطحال. يأكلهما نيئين، وأحيانًا يضطر إلى شيِّهما، بعد وصلة تأنيب من أخيه. ينام سعيدًا، لكن بطنه لا يكف عن الثرثرة، وكان هذا

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

جيدًا له، فقد أمّنه دائمًا من لدغات البعوض، وقرصات النحل، ومضايقات الذباب والنمل الفارسي. هذه الكائنات تشك غالبًا أن تلك الأصوات مقدمة لانفجار كبير، فتفضّل البقاء على مسافة آمنة منه. كان يحلم، وكانت أحلامه محدودة، تدور في نفس المكان، من البيت إلى الفناء إلى الدكان، يطارد الحيوانات، وتطارده، يذبحها وتذبحه، ويأكل كثيرًا من الدهون، لكن تلك الأحلام لم تخل أيضًا من توبيخ أخيه بشكل مزعج. سارت حياته على وتيرة واحدة، بين أكلة لحم لا يكفون عن التفكير في ذبيحة الخميس القادم قبل تناول وجبة هذا الخميس، وبين براميل لحم متحركة ظن دائمًا أنها تفكر مثله..

استيقظ مرة على ألم غير محتمل، انطلق من جانبيه، وانتبه إلى أن بطنه منتفخ كبالون. لم يتوقف الألم لحظة، وازداد بمرور الوقت. سرى من جانبيه وبطنه إلى صدره ورأسه. انفجر في البكاء، وأطلق صوتًا أقرب إلى العواء. ظن الجيران أن ذئبًا يهاجمه، وحاولوا كسر الباب الضخم، ولم يستطيعوا. قفز بعضهم عبر الجدار القصير إلى السقف البدائي، ورفعوا جريد النخل الأسود. هبطوا من فرجة إلى الداخل. وجدوه مكوّمًا على أرض طينية مبتلّة بدموعه ولعابه. من إشاراته فهموا، وحملوه إلى الشارع. اتجهوا إلى الدكان الخالي. وجدوا أخاه يجلس كملك على الكرسي وهو يدخن. نهض معهم واتجهوا به إلى المستشفى. كان لا بد من شقّه فورًا. أجروا له عمليتين، وأخرجوا من كليتيه عشرين حصاة ذات أحجام مختلفة، منها واحدة في حجم ليمونة صغيرة. معظمها أملس، وقليل منها تخرج منه زوائد مسنونة. بعضها أسود، وبعضها الآخر ملون كالأحجار الكريمة، ومع رفض الأطباء مغادرته قبل الموعد المحدد، هرب من المستشفى، إذ إن العيد على مسافة يومين، وهو لن يترك أخاه يستحوذ على البلد بمفرده.

ورغم ضيق أخيه من هروبه إلا أنه استسلم للأمر الواقع، وبعد تكبيرات العيد، خرج جمعة إلى الشارع. رفع صوته بالهتاف: «يا تفاح يا تفاح» وكرره بانتظام، ولم يجاوبه أحد. بعد قليل أطلّ رأس طفل سعيد من

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

خلف باب، ثم رأس طفل آخر، حتى تجمَّع جيش من الأطفال إلى جواره في انتظار ظهور أخيه مع العجل، ثم ظهر، ولمع العجل الذهبي في الشمس. عليهم أن يقطعوا به شوارع البلدة، مثل كل عام، وأن يهتف جمعة ويجاوبه الأطفال. يخرج الكبار ليشاهدوا العجل في أبهى صوره، ويسرعوا للحصول على أنصبتهم منه. يُخرِج جمعة كيس حلوى من جيبه وينثره على الأطفال، فقد قاموا بدورهم على أكمل وجه، رغم معاركهم الصغيرة. يحاول كل منهم إزاحة الآخر ليصل إلى مقدمة الصف، فجمعة يفضِّل دائمًا إلقاء الحلوى تحت أقدامه، وبالتالي - في كل عام - لا ينجح المتأخرون في الحصول على واحدة.

كان رمضان ينادي بالصوت العالي: «يا تفاح يا تفاح» ويجاوبه الكورال بصوت أعلى: «سمنك ساح يا تفاح»، وكان هذا أفضل تشبيه يمكن أن تصل إليه هذه العقول. التفاح الأمريكاني أحد أحلامهم، يشاهدونه في المركز فيسيل لعابهم، ومن جرَّب طعمه منهم، حكى بولهٍ، عن إحساس غير مسبوق من اللذة، عن انتقاله إلى الجنة وعودته منها بعد التهام التفاحة. وها هم على وشك أن يتقاسموا التفاحة، أو العجل، وقد طاب لدرجة أن سمنه ساح.

وصلت القافلة إلى الدكان وتأخر جمعة في إلقاء الحلوى. رمقه أخوه بنظرة مندهشة وغاضبة، فأدخل يده في جيبه الخاطئ متعمدًا. قبض على حصوات كليتيه، وألقاها بعيدًا. طار الأطفال خلفها، وسقطوا فوق بعضهم. اندهش من غنموها وهم يتأملون ألوانها وأحجامها الغريبة. كان ملمسها قاسيًا، ولم تستطع أسنانهم خدشها. تحدثوا سويًا، واتفقوا على أن يذهب كل منهم إلى بيته، فبعض الحلوى لا يذوب إلا في الماء. رمقهم الأطفال الذين لم يحصلوا على نصيب من الغنيمة - بحسد بالغ - لكنهم كانوا غير قلقين، ويعرفون أن اليوم عيد، وأن القرية بأكملها، بناسها، وحيواناتها، وحشراتها، وزواحفها، وطيورها، لا تنام إلا بعد أن تشم رائحة اللحم تنضح من مسامها وفتحات إخراجها.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com

أبو دقيق

تراب أبيض مقدس

هنيئًا لنا أيتها الفراشات أنك تمنحيننا دقيقنا كفافًا، نعبِّئه في أجولة من الخيش السميك، نعود به إلى بيوتنا سعداء، على يقين بأننا لن نموت جوعى. هنيئًا لنا أيتها الفراشات، فبإمكاننا - نحن والشمس - أن نستغني عن كل شيء إلا خبزنا. الشمس تمنحه إشراقته، واسمه من اسمها، العيش الشمسي، بينما نملأ بطوننا به، مع قليل من الزاد أو بدونه. شكرًا لك أيتها الفراشات، حتى لو أكلتِ بتلاتنا. حتى لو مزقتِ أوراقنا الخضراء. حتى لو نثرتِ يرقاتك في أماكن لا نراها، فأنت تحتاجين بدورك إلى طعام، يجعلك قادرة على منحنا ترابنا الأبيض السحري، وصغارك يجب أن تهرب. خبئيهم ولا تخافي، فهناك شخص ولو صغير ينمو ببطء سيظل يحبك إلى ما لا نهاية.

هل تعلمين أيتها الفراشات أنهم يسمونك حشرة، وأنهم في أفضل الأحوال يسمونك «أبو دقيق». نعم هذا هو اسمك. ليس في قريتنا. وإنما في كل القرى حولنا. هل ترين أن هناك اسمًا أفضل لك؟ لو قُدِّر لك ماذا تُطلقين على نفسك؟ هل يفيد الكائن أن يختار لنفسه اسمًا؟ معظمنا يتعامل مع اسم لا يختاره. يتقبله - غالبًا - حتى وإن فكَّر يومًا ما أنه ليس أفضل الأسماء. حتى أبونا آدم لم يختر اسمه. حينما كبرت قليلًا، وصار بإمكاني شراء المجلة الطبية الشهرية الوحيدة وقتها، فهمت أن هذا هو اسمك أيضًا في آسيا، وأمريكا اللاتينية، وأوروبا. يقولون إنك خبيثة. يكرهونك، ويأمرون أبناءهم باعتبارك من الأعداء، فإذا ظهرتِ تبور معظم المحاصيل. إذا ظهرتِ تنقلب الحياة الهادئة.

هؤلاء القساة - أهلي وأبناء عمومتي - قد يكون معهم حق في بعض ما يرددونه، لكنهم ينسون أصول التكافل، إذ تحصلين على الأخضر

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

وتعيدينه إليهم أبيض. لكنهم يخططون دائمًا لشراء مزيد من السم ويرشونه على الزرع، ليقتلوا صغارك، ويخنقوك، ويجبروك على الرحيل أو الموت. إنهم ناكرو جميل. لا يكسر غطرستهم سوى الغربان. آه. تذكرت. الغراب عدو آخر لك، لكنه عمومًا يحصل على كفايته من اللوم في كل غارة له على أفراخنا. لا تطيري وتتركيني وأنا أحدثك. سأحكي لك قصة عن عدوك. أمس رأيت رجلًا يحاول إغاظة أحد الغربان صائحًا: «بيقولوا للغراب كنت فين؟ قال لهم كنت غرقان في بحر القشطة. قالوا له كان بان على رجليك!»، لكن الغراب لم يلتفت إلى ساقيه النحيفتين الملطختين بالقاذورات. لم يشعر - بشكل أدق - بالإهانة. رمق الرجل الشبيه بمقشة، ولم يتحرك من مكانه. حاول الرجل إخافته، بادِّعاء أنه يلتقط حجرًا وهميًا من الأرض ويلقيه باتجاهه، لكن الغراب الواثق لم يتحرك إلا بعد وقت طويل على يأس هذا البهلوان، وكفه عن الحركات الساذجة. لماذا أحكي لك هذه القصة؟! تخيلت أن القرويين أكثر شرًا بالنسبة لك من الغراب و«أبو قردان»، وأن هناك ما يعزيك في تلك الكلمات، حتى لو كان بطلها عدوًا آخر.

أقول لكِ. كنت دائم التردد على طاحونة عم «بلمون». صاحبها يأتي من قرية «القصر»، ليمنحنا الدقيق بمساعدة آلاف الفراشات. حاولت كثيرًا التلصص، أو حتى اجتياز مدخل الطاحونة، لكن النساء كنَّ يقفن بأجولة ثقيلة تسد مدخلها، منتظرات أدوارهن. تخيلت - على الدوام - أن عم بلمون ينتظرك بالداخل، أيتها الفراشات النبيلة، حيث تطير عائلاتك إلى قصعة في منتصف الطاحونة. تنثر الدقيق الناعم فيها من أجنحتها الضخمة، ثم تختبئ في السقف العالي إلى أن تمتلئ بطونها، أو تأتي فراشات غيرها.

شكرًا لكِ. فلم تعد امرأة مكسورة الخاطر إلى بيتها، ولم ينم رجل أو طفل أو طائر جائعًا بفضلك، لكنني أريد الاعتراف أمامك أنني كنت ساذجًا، إذ فهمت بعد سنوات، أنني أعيش في عالم خيالي، وأن فكرتي عنك خاطئة. اضطُر أقاربي وأقراني فردًا فردًا أن يُقسموا لي على أن ما

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

تفرزينه من بطونك هو تلك المادة السامة التي تأكل الزرع. لم أكن على دراية. كثيرًا ما مددتُ أصابعي وتلمَّست - فرِحًا - الدقيق على الأوراق الخضراء، متغاضيًا عن الثقوب الشنيعة في أوراق الكرنب. لكن فهمت أخيرًا أن الدقيق يُطحَن من القمح في موسم، ومن الذرة في موسم آخر. كانت الأجولة - التي تحملها النساء - مليئة بالذرة المفروطة، أو بالقمح. كان يجب أن أفهم، لكن هل تصدقينني لو قلت لك إن حبي لك - رغم الصدمة - لم يقل ولو بمقدار ضئيل، إذ إنك مجبولة على البحث عن طعامك الأخضر. ثم إنك صرتِ أسطورتي. أسطورة يسمونها «أبو دقيق»، لكنني أسميها «أسطورة التراب الأبيض». وأرجو أن تمنحيني انتباهك لتفهمي أن هؤلاء الناس قد يعتقدون - يومًا ما - أن عليهم مسامحتك، على الأقل لأن أكثر شيء مرتبط بك هو ترابهم الأبيض المقدس.

إذا أحضر رجل جوال دقيق يفهم، وتفهم زوجته وصغاره، أن الجوع غادر البيت غاضبًا لأيام، مهما قلَّ الزاد. وها أنا ذا أكرر كلامي، فتحمليني قليلًا. الدقيق هو سيدُ التراب الأبيض، لكنه لا يسلم من عدوٍ. صحيح أن عدوه ضئيل الحجم، إلا أنه يطفئ بهجة الدقيق. إذا خزَّنته أمهاتنا في أماكن مظلمة، قليلة التهوية، يهاجمه السوس الأسود. تخيلت - زمان - أنه يقفز من أسناننا المتسوِّسة - ونحن نائمون - ويتجه إلى جوال الدقيق الجديد، ينهك نفسه - طوال الليل - في الحركة، من الفراش إلى الأرض، قاطعًا المسافة إلى غرفة التخزين. يخترق الجوال. يترك يرقات بالمئات، لكنه لا هو، ولا يرقاته، يظهر على السطح، إلا حينما يتكاثر ويترك كثيرًا من الفضلات. وقتها تسبح على السطح بلا خجل، ويدفن نفسه في بحر الدقيق، مطمئنًا إلى الرزق الوفير، لكنه لا يعلم أن أمهاتنا له بالمرصاد.

هل تعلمين أيتها الفراشات: لو ظهرت أمهاتنا، وبدأن في غرس أصابعهن بفزع في الدقيق، يهرب السوس إلى الأعماق السحيقة. بمجرد اختفائه تشعر أمهاتنا بقليل من الاطمئنان. تقول إحداهن لطفلتها: «غار

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

في داهية!». بينما تقول أخرى لتُطمئِن زوجها، وهي تمسح يديها المغبَّرتين بالتراب الأبيض: «السوس قليل!». لكنها تقرّبه من أنفها وتشم رائحة نعناع، أو ما يشبه رائحة نعناع، فتعرف أن عليها القلق، إذ إن السوس ليس قليلًا كما ادَّعت منذ قليل، ثم إن سطح الدقيق خشن، كأنه تعرض لزخَّة مطر. كان عليها - هي وأخريات - أن يسحبن الجوال بشكل سريع إلى الشمس. الشمس هي أمنا، وملكتنا. صحيح أنها تقهرنا قليلًا أيام الصيف، وتجبرنا على الهرب كالفئران إلى جحورنا الرطبة ومراوحها البدائية، لكنها تساندنا، وتخبرنا أنها - لهذا السبب - يجب أن تكون قاسية طوال الوقت. لو أنها أظهرت جانبها الحنون لنخر السوس دقيقنا وزرعنا وأجسادنا وأجساد حيواناتنا، ولهذا: لا تنتظروا من شمس أن تلين. ثم تحضر كل أم منخلًا. يصيح رجل بسعادة وهو يرى الدقيق ينهمر منه، صانعًا جبلًا في آنية ضخمة: «اعملي للأولاد عصيدة!» فترمقه بدلال وفرح. المنخل يُخلِّص الدقيق من النخالة الثقيلة الصفراء الداكنة، وكذلك من السوس. يصير شاهق البياض، كان على الأمهات كذلك أن ينقين السوس يدويًا من النخالة، وعليهن أن يخبزن سريعًا، قبل أن تعود جحافل السوس في أسراب لا قبل لهن بها. يكتسب الرغيف الشمسي لونًا ذهبيًا في الفرن، لكن قلبه أو ما نسميه «لبّه» يحتفظ - على الدوام - أيتها الفراشات بشيء من اللون الأصلي. الأبيض النقي. والرغيف الشمسي لن يلحقه أذى إن تم تخزينه في أكياس من المشمَّع القوي، لعدة أيام، لكن البكتريا ستُلطِّخه غالبًا - في نهاية المطاف - بجيشها الأخضر وبقعها البيضاء. على أية حال، نفرك هذه الجيوش الخضراء وتلك البقع البيضاء بأصابعنا. ننفضها، ونأكل الرغيف، فالطعام يقتصر في معظم أيام الأسبوع على الخبز فقط، وإن تغولت البكتريا الخضراء تلجأ الأمهات إلى تحميص المتبقي من العيش، فتأنفه سائر الكائنات، بما فيها نحن، لكننا ننقعه في الشاي، ونزدرده.

كنا نمنح الأموات أنصبتهم من الخبز في المناسبات كذلك، لكن لأننا كنا نبذل مجهودًا في الدعاء لهم نفضِّل غالبًا استعادة خبزنا مكافأة لأنفسنا على إخلاصنا واجتهادنا، أو نستعيره منهم إذا شئنا عدم الدقة،

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

على وعد بأن نمنحهم أنصبة مضاعفة منه في أقرب مناسبة.

وها أنا أردد أيتها الفراشات مع السيد المسيح: «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان» ولكنه قد يحيا بالخبز والملح، وبالخبز والسكر. كلاهما شبيه بالدقيق، كلاهما تراب أبيض، كلاهما في المتناول. لا نحب سكر التموين الأصفر. نسحقه في الخلاطات، فيخرج أبيض في لون وردة الفول. لكن دعيني أحدثك أولا عن الملح، فأنت - لا ريب – تعلمين أنه سيِّد طعامنا. كان متوفرًا في عبوات بلاستيكية موحدة، تزن نصف كيلو، وكان الملح أول معرفتنا بعذاب الآخرة، إذ يطيب لجداتنا أن يرددن على مسامعنا أن الملح مقدس. تلك الجلاميد الصخرية شبيهة الثلج، شاهقة البياض يعافها الجميع، باستثناء الأبراص. تلك الجلاميد ستلحقنا بجهنم. تقول جدتي إن البرص ينفث السم في الملح ليؤذينا، لكنها تكذب، حتى أغلق - كما تأمرني - علبة قديمة على الملح. تقول لي حينما تلمحني أنفض أصابعي على الأرض من بضعة جرامات ملح، بعد أن أرش كفايتي على البيض المقلي في آنية فخار سوداء، إن الله سيأمرني يوم القيامة بأن أجمعها بكوعي. أرعبتني الفكرة على الدوام، فبحساب الجرامات التي أنفضها يوميًا، على مدار سنوات مضت، وعلى مدار سنوات قادمة، سيصبح المُهدرُ في حجم جبل، ثم لماذا أجمعها بكوعي؟ إن كانت موجودة فيمكنني حملها بيدي. لكنه الإمعان في العذاب أيتها الفراشات.

تخفف أمهاتنا وجداتنا الملح بالكمون. يجعلن مذاقه حريفًا بإضافة الشطة، ولاذعًا بإضافة الفلفل الأسود. هذه هي الخلطة المعتبرة «الدقة» إذا خلا البيت من أي شيء سوى العيش الشمسي. كن يستخدمنه في التطبيب كذلك، لمعالجة الرمد، تذيب جدتي جرام ملح في كوب صغير، ثم تميلني على فخذها. تأمر إحدى عماتي بأن تساعدها في فتح عينيّ، إذ إنني أوصدهما بقوة خوفًا من الألم الحارق المنتظر. كادت جدتي تتسبب في إصابتي بالعمى، لكني لم أتعرض لهذا بمفردي. عيون الأطفال تُكوَى بالملح، وأحيانًا بالملح والليمون وكذلك بالملح

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

والليمون وعصارة البصل، لكن العلاج الأكثر رحمة كان لبن الأثداء، إذ تقطر المرضعة بضع قطرات من ثديها في حجر يسمونه «حجر الطرفة». إذا آذى الطفل عينه بالخطأ بينما يلهو، أو.. إذا أصابها أحد الأطفال الآخرين نقول إنه «طرفها» أو «طرفوها» ونستعير الحجر من الجيران. لم تكن البلدة تملك سوى حجرين، إذ إنه نادر، ويقال إنهم يأتون به من بلاد الجن. كان الحجر زلقًا ومجوفًا، وذا طرف رفيع يسمح بصب القطرات البيضاء في عيوننا، فتبرِّدُها وتهدِّئُها قليلًا، ولم يكن لبن الأمهات مجانيًا، إذ كن يشربن ألباننا التي تصرفها الحكومة لنا. كنا نحصل من العلب الصفراء على قليل من بودرة اللبن، التي تكفي بالكاد رضعات مخففة بالماء أو الينسون، كنا نراقب سحر الماء، حينما يصبح لبنًا صافيًا، بمجرد أن نمزجه بالبودرة الصفراء، بينما كان الكبار، الآباء والأمهات يسرقون ألباننا. يخلطونها بالشاي، وأحيانًا يصنعون منها فتة اللبن بالسمن البلدي. كنا أطفالًا ذوي عظام هشة، تجهدنا الحركة، فلا نستطيع الاستمرار طويلًا في اللعب. لا أريدك أن تكرهي كبارنا أيتها الفراشات، حتى لو حكيت لك أننا كنا نرى بعضهم يشربون رضعاتنا. كانت بطونهم تأكل مشاعرهم على ما يبدو، أو تعطلها مؤقتًا، لأننا بمجرد أن نرفع أصواتنا بالبكاء الحار ينتبهون. تعود الحياة والمشاعر إلى وجوههم وأجسادهم. يهرولون في كل اتجاه، ليبحثوا لنا عن طعام، لدرجة أنهم كانوا يتحسسون مؤخرات الدجاج ويجبرونها على وضع البيض قبل الأوان. www.maktabbah.blogspot.com

كان الملح قادرًا على إدارة رؤوس الكبار أيتها الفراشات، جدتي وعمتي. جداتهم وعماتهم، كن يطلبن منا شراء لفة تبغ صغيرة، تباع بقرش، في ورقة بدائية. لا أذكر من اللفة الآن سوى ختم أزرق أو أحمر أو أخضر، على هيئة عجلة حربية يمتطيها أحمس، تحتل جزءًا من فراغ الورقة الأبيض، وإلى جوارها كلمة «مطرون». تطلب مني جدتي أن أحضر كيسًا منتفخًا بحجر المطرون، ترفع صوتها وتحذرني من العودة بحجر صغير، تضخِّم صوتها كأنني لن أفهم الحجم المطلوب إلا بهذه الطريقة: «أوعى يضحك عليك!». أسألها عن ماهية ذلك الحجر

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

فتخبرني بأنه نوع من الملح. يمنحني البائعون في معظم المرات أكياسًا تكاد أن تتفجر بجلمود مطرون، وأحيانًا تكون خالية منه، فأفهم أنها جاءت هكذا من المصنع البدائي.

يُصنع ذلك التبغ من أوراق التمباك والقمامة وفروع وأوراق الأشجار والقش، ولكي يتم تحويله إلى ما يُطلِق عليه الكبار «النشوق» يقطَّع هذا الخليط ويطحن جيدًا. تضع جدتي قليلًا من الحجر والورق البُنّي بين لحم خدها ولثتها. تغلق عينيها، ولا أعلم إن كانت تبتلع القطرات التي تنزُ منه في فمها أم لا، لكن الرَّاحة المرتسمةَ على وجهها، ذلك الخدر الذي يسري في جسدها، حركتها المتثاقلة بقية اليوم، نطقها البطيء كان يعني أنها منتشية، أما عمتي فتطحن التبغ وتضعه في علبة أدوية فارغة من «الباغ». تسحب القليل بأصابعها من «النشوق». تكوِّمه على ظهر يدها، وتستنشقه دفعة واحدة، لكنها لا تصل بسهولة إلى ذروة الاستمتاع إلا بعد أن تسحب القليل منه وتلطخ به أسنانها ولثتها، ثم تريح ظهرها إلى الحائط وتنام مبتسمة، ولا تنتبه للسحالي التي تمرح على طرحتها السوداء، ولا الذباب الذي يغطي وجهها.

سأخبرك كذلك أيتها الفراشات عن السكر. إذا دخل بيتًا أسعده، وإذا غادره أصابته التعاسة والوجوم. صحيح أن السكر زائد عن الحاجة لكن وجوده يعني أن الخير وفير، أن فتة اللبن تصبح طيبة المذاق، أن المكرونة المسلوقة قد تصبح حلوى بإضافته مع اللبن إليها. كان بإمكاننا إلقام الوحوش الصغيرة الجائعة في بطوننا بكسرات من الخبز نهيل عليها السمن البلدي والسكر، ولو أن الخبز خارج لتوه من الفرن فلا حاجة إلى تسخين السمن. تتكفل حرارة الخبز بإذابته، وإذابة السكر. الرائحة تخبر الجيران وحيواناتهم أنه لا مجال للجوع اليوم، وأن بإمكان الجارة الطرق على باب جارتها، لتقول لها بحب العالم: «صباح الخير» فترد عليها الجارة: «خير صباحين»، قبل أن تخطف رغيفي عيش شمسي من سَبَت الخوص الضخم وتضعهما في يدها قائلة: «حاسبي يلسعك. ساخن».

www.maktabbah.blogspot.com

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com

تهرول الجارة إلى أولادها ولا تضن عليهم كذلك ببضع ملاعق من السمن البلدي الأخضر والسكر. السكر يعني أن أعيادنا بخير أيتها الفراشات. نحن نحبه حتى وإن كان مكدسًا بالنمل. لو أن بيتًا خلا منه فلن يعرف بهجة خبز البسكويت، لكننا - على العموم -نتقاسم ما نخبزه بالتساوي. ليس من حقك أن تترك جارًا يتشمم رائحة طعام، بدون أن يحصل على نصيبه منه، رغم أن هذا يعني ببساطة أن الجميع لن يشبع، وأن الجوع يصير فقط نصف جوع.

حتى دهان حوائطنا أيتها الفراشات يتحكم فيه التراب الأبيض. الجير الرخيص. يحضرونه ويذيبونه ويخلطونه بألوان فاقعة، أصفر وأخضر وأزرق وأحمر. لا يغامرون بترك حوائطهم بيضاء. الجبل القريب يُرسِل جيوش التراب. ننهض لنجد أنفسنا مدفونين - نحن وبيوتنا - تحت أغطية رمادية، ثم إننا - نحن الأطفال - لا نترك سطحًا نظيفًا إلا وننخره بأظافرنا، إلا ونلوثه بما تصل إليه أيدينا من طين نسحبه من البرك الآسنة حولنا في كل مكان. الجير لا يثبت على الحوائط إلا شهورًا، وما يلبث أن يشيخ. ينفصل عن الحائط. يبدو كأنه كتل ضخمة موازية للطوب اللبني، ثم يسقط في النهاية، لتتحرر حوائطنا العتيقة. رائحة الحوائط قادرة على إصابة رئاتنا بالسعال القاسي وتحويلها إلى مخازن للغبار. قادرة على إصابتنا بالرمد، بخلاف أنها مخابئ ممتازة للفئران الضخمة، والأبراص، والسحالي، وحتى الناموس القوي يستقر عليها في المساء إذا شح الضوء ثم يهاجم عيوننا، فنستيقظ صباحًا بعين جيدة، وعين متورمة حمراء مثل عين ضفدعة ضخمة.

www.maktabbah.blogspot.com

نحن نقدِّس اللون الأبيض أيتها الفراشات، لدرجة أننا خصَّصناه لأكفان موتانا. صار بإمكانهم الوصول أخيرًا إلى نهاية مضمار التعاسة. نزفُّهم إلى التراب بالأقمشة النظيفة. نتركهم هناك ونحن نشعر بالأسى، لكننا نعزي أنفسنا - كل صباح - بالأمل، وبالمعارك الصغيرة وبالهرولة هنا وهناك لنحصل على طعام. نضحك ونحن نرى أمهاتنا عائدات من الطاحونة تغطِّيهن طبقة الدقيق. التراب هو ما يحكمنا رغم كل شيء.

مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
www.maktabbah.blogspot.com

www.maktabbah.blogspot.com
مكتبة بيت الحصريات أكبر مكتبة للكتب والروايات الحصرية والمميزة والجديدة
قلوبنا عضلات صلبة ودماء، لكنها في نقاء الثلج، وعطاء الدقيق، وقوة الملح، وبهجة السكر، وقسوة الجير، وتدفق اللبن، وتواضع الكفن.
حياتنا رمادية لكن عقولنا مشمسة. ننام باكين، لكننا نستيقظ مشرقين، نوزع الابتسامات على أنفسنا وحيواناتنا، لذا.. أرجوك أيتها الفراشات: كُفّي عن التفكير في قسوة آبائنا، إذ إنها الجانب البعيد منهم. لا تفكري في السوء، وانثري خيرك في كل مكان، وامنحينا دقيقنا كفافًا، حتى ولو كان ذلك لا يحدث إلا في خيالنا، نحن الصغار، إذ إننا نشيخ لكن خيالنا لا يشيخ أبدًا.

مكتبة
بيت الحصريات
maktabbah.blogspot.com
أكبر مكتبة للكتب و الروايات الحصرية
والمميزة والنادرة بصيغة PDF
تابعونا على الموقع الرسمي
www.maktabbah.blogspot.com
أو على قناة التيليجرام
t.me/alanbyawardmsr

صدر للكاتب

- «ساق وحيدة»، مجموعة قصصية، . 2002

- «عين القط»، رواية، .2004

- «ناصية باتا»، رواية، .2010

- «السهو والخطأ»، قصص، .2016

- «حروب فاتنة»، قصص، .2018

- «ذئاب منفردة»، بورتريهات، 2020